تأملات في القمم

تسلق الجبال بوصفه مَجازاً للسعي الروحي

يوليوس إيفولا

بسم الله الرحمن الرحيم

اللَّهُمَّ صل على محمد وعلى آله وصحابته أجمعين

[القسم الأول: العقيدة]

١: الجبل والروحانية

ثمة في العالم الحديث عاملان يضطلعان، أكثر من غيرهما، بوزر إعاقة إدراكنا لتلك الروحانية التي خبرتها التقاليد الأشد قدماً: أولهما هو الطابع التجريدي لثقافتنا، وثانيهما هو تمجيد هوس أعمى ومحموم بالنشاط والعمل.

فمن ناحية، نجد أقوا ماً يقرنون "الروح" بما حصلوه من معارف في بطون الكتب وقاعات الجامعات، أو بما يمارسه الفلاسفة من ألعاب ذهنية، أو بذاك التأنق الجمالي الأدبي أو الروحاني الزائف. ومن ناحية أخرى، جعلت الأجيال الجديدة من المنافسات الرياضية ديناً لها، وبدت عاجزة عن تصور أي معنى يتجاوز إثارة حصص التدريب والمباريات والإنجازات البدنية؛ لقد صيروا الإنجاز الرياضي غاية في ذاته، بل وهوساً مستولياً، عوض أن يكون وسيلة لبلوغ غاية أسمى.

وينظر البعض إلى هذا التضاد في أنماط العيش بوصفه نوعاً من المعضلات. وفي واقع الأمر، نلفي لدى "النموذج العالِم"

نفوراً فطرياً قوياً من أي نوع من أنواع الانضباط البدني؛ وبالمثل، نجد لدى كثير ممن يمارسون الرياضة أن الشعور بالقوة البدنية يورثهم ازدراءً لأولئك القابعين في "صوامع عاجية" يحبسون أنفسهم بين طيات الكتب ومعارك الكلمات التي يرونها لا تضر ولا تنفع.

ويجب اعتبار هذين النمطين من العيش ضالين، وثمرة من ثمار الانحلال الحديث؛ لكونهما غريبين عن الرؤية البطولية للروح التي شكلت محور أفضل التقاليد الكلاسيكية الغربية، تلك التي يجري استحضارها بنجاح في سياق التجديد الفعلي لإيطاليا. فكثيراً ما ينسى الناس أن الروحانية هي في جوهرها منهاج حياة، وأن مقياسها لا يتمثل فيما يختزنه المرء في رأسه من مفاهيم ونظريات وأفكار. إن الروحانية هي في حقيقتِها ما جرى تحقيقه بنجاح وترجمته إلى شعور بالتفوق تخبره النفس في باطنها، وسَمْت نبيل يعبر عنه الجسد في ظاهره.

ومن هذا المنظور، يمكن تقدير الانضباط الذي، وإن تعلق بطاقات الجسد، فإنه لا يبدأ وينتهي عندها، بل يستحيل وسيلة لإيقاظ روحانية حية وعضوية. هذا هو انضباط الشخصية الباطنية المتفوقة. وفي الزاهد، يتبدى مثل هذا الانضباط بأسلوب سلبي إذا جاز التعبير، أما في البطل، فإنه يتبدى بأسلوب إيجابي توكيدي، وهو الأسلوب النمطي للعالم الغربي. إن النصر الباطني على القوى الأشد عمقاً، والتي تطفو على سطح الوعي في أوقات الشدة والخطر المميت، هو نصر بمعناه الخارجي، لكنه أيضاً آية على انتصار الروح على ذاتها وعلامة على استحالة باطنية. ومن هنا، أحاطت في العصور القديمة هالة من القداسة بكل من البطل والمستنير في الحركات الدينية أو العرفانية، واعتبرت الشخصيات البطولية رموزاً للخلود.

بيد أن الحضارة الحديثة تنزع إلى خنق كل شعور بطولي بالحياة. فكل شيء أضحى مكنناً ومفقراً روحياً إلى حد ما، واختزل إلى مجرد رابطة حذرة ومنظمة بين كائنات معوزة

فقدت اكتفاءها الذاتي. لقد انقطع الاتصال بين قوى الإنسان العميقة والحرة وبين قوى الأشياء والطبيعة؛ فالحياة في الحواضر الكبرى تحجر كل شيء، وتقطع كل نفس، وتلوث كل "بئر" روحية. وكأن ذلك لم يكن كافياً، إذ تعزز الأيديولوجيات خائرة العزم ازدراء تلك القيم التي كانت في أزمان أخرى ركيزة لتنظيمات اجتماعية أكثر عقلانية واشراقاً. ففي المجتمعات القديمة، كان ذروة الهرم تشغله طبقة الأرستقراطية المحاربة، بينما نجد اليوم في اليوتوبيات السلمية الإنسانية (لا سيما الأنجلوسكسونية منها) محاولات لتصوير المحارب بوصفه نوعاً من المفارقة التاريخية، وكائناً خطيراً وضاراً سيجري التخلص منه يوماً ما باسم التقدم.

ومتى خُنقت الإرادة البطولية، فإنها تبحث لنفسها عن مخارج أخرى خارج شبكة المصالح العملية والنزوات والأشواق، تلك الشبكة التي تزداد ضيقاً يوماً بعد يوم؛ وما الإثارة التي تبعثها الرياضة في نفوس معاصرينا إلا تعبير عن هذا المنزع.

ولكن الإرادة البطولية تحتاج إلى اســـتعادة وعيها بذاتها والتحرك وراء حدود المادية.

وفي مغالبة ذرى الجبال، ينعتق الفعل أخيراً من ربقة الآلات، ومن كل ما ينتقص من علاقة الإنسان المباشرة والمطلقة بالأشياء. فبالقرب من السماء والصدوع الجليدية ـ وســط العظمة الســاكنة والصــامتة للقمم؛ وفي عواصــف الرياح العاتية؛ وبين بياض الجليد المبهر؛ أو وسط الاستقامة العمودية الرهيبة لصــفحات الصــخر ـــــ يتأتى إيقاظ رمز التغلب (عبر ما قد يبدو في البداية مجرد اســتخدام للجســد)، ونيل ضياء روحاني وتحولي حق، والاتصال بالقوى البدئية المحبوسة في أعضاء الجسد. وبهذه الطريقة، تغدو نضالات المتسلق أكثر من مجرد فعل بدني، وقد يمثل الصعود الناجح إنجازاً لشيء لم يعد بشرياً فحسب. ففي الأساطير القديمة، اعتبرت قمم الجبال مقراً للآلهة؛ وهذا وإن كان أســـطورة، فإنه تعبير مجازي عن عقيدة حقيقية يمكنها دوماً أن تنبعث من جديد من منظور الباطن.

وفي الحياة ـ كما أشار سيميل مقتفياً أثر نيتشه ـ يمتلك البشر قوة غريبة تكاد لا تُصدق للوصول إلى ذرى وجودية معينة، حيث تتحول "زيادة الحياة" (mehr leben)، أو أعلى درجات كثافتها، إلى "ما فوق الحياة" (mehr als leben). وعند هذه القمم، ومثلما تتحول الحرارة إلى ضياء، تحرر الحياة من ذاتها؛ ليس بمعنى فناء الفردية أو نوع من الغرق الصوفي، بل بمعنى توكيد متعالٍ للحياة، يفسح فيه القلق والنزوع اللامتناهي والشوق والوجل والبحث عن الإيمان الديني والمساند والغايات البشرية، المجال لحالة مهيمنة من السكينة. ثمة شيء أسمى من الحياة، يكمن داخل الحياة ذاتها لا خارجها. وهذه التجربة البطولية قيمة وخيرة في ذاتها، بينما الحياة العادية لا تسيرها سوى المصالح والأشياء الخارجية والاصطلاحات البشرية. وأنا أستخدم كلمة "تجربة" لأن هذه الحالة لا ترتبط بأي عقيدة أو نظرية معينة (وهي دوماً عديمة القيمة ونسبية)؛ بل هي تقدم نفسها بأسلوب مباشر لا يتطرق إليه الشك، تماماً مثل تجارب الألم واللذة.

إن هذا البعد العميق للروح، الذي يدرك ذاته بوصـــفه لا متناهياً ومتجاوزاً لذاته، وما وراء كل واقع جلي، يســتيقظ ويشع ـــ وإن لم يكن بوعي تام ـــ في "جنون" أولئك الذين يتكاثرون في عددهم ويجرؤون، دون ســبب محدد، على تحدي مرتقيات الجبال، تيقودهم إرادة تنتصر على المخاوف والإعياء وغرائز الحذر وحب البقاء البدائية.

أن تشـعر بأنك متروك لمواردك وحدك، بلا عون في موقف يائس، ملتحفاً فقط بقوتك أو ضــعفك، ولا معتمد لك سوى ذاتك؛ أن تتسلق من صخرة إلى صخرة، ومن مقبض إلى مقبض، ومن حيد إلى حيد، بلا هوادة لســاعات طوال؛ مع الشــعور بالارتفاع والخطر المحدق من حولك؛ وأخيراً، وبعد الاختبار القاسي لاستحضار كل انضباطك الذاتي، يأتيك الشـعور بتحرر لا يوصــف، بوحدة شمسـية وبصمت؛ نهاية الصراع، وقهر المخاوف، وتجلي أفق لا يحده حد لأميال وأميال، بينما يربض كل شيء آخر في الأسفل

ـــــ في كل هذا يمكن للمرء حقاً أن يجد الإمكانية الفعلية للتطهر، والاستفاقة، ولإعادة ميلاد شيء متعالٍ.

ولا يهم أن الرمزية البطولية للجبل لا يختبرها في البداية سوى القلة. فمتى جرى التركيز على هذه المعاني كما ينبغي، فإنها ستؤثر في الناس. فلا يوجد متسلق حقيقي يعجز عن اختبار تسلق الجبال، ولو في ومضات عابرة، بوصفه شيئاً يفوق مجرد الرياضة. وبالمثل، لا يوجد متسلق حقيقي لا يبدي في عينيه أو في وجهه الذي لوحته انعكاسات الشمس على الثلج، سِمة عِرق تحول وتجاوز عرق أهل السهول.

وعلى هذا الأساس، يجب علينا إنقاذ الجبال من غزو السائحين الملوث الذين يحاولون قهرها ببناء معسكراتهم "الحضارية". وأنا لا أشير هنا فقط إلى أولئك الشباب خائري العزم الذين يحملون معهم إلى المنتجعات الجبلية الشهيرة عادات مدنهم المبتذلة واليومية (مثل المراقص وملاعب التنس)، والذين يستعرضون بصلف المعدات

الجديدة الملونة التي اشــتروها لمجرد نزهة غير ضـــارة في الأحراش. بل أشير أيضاً إلى أولئك الذين يلطخون الأماكن الصـــامتة والنقية بالمادية والابتذال، ونعني بذلك الروح التنافســية وهوس البحث عن الصــعب وغير المألوف من أجل تسجيل أرقام قياسية جديدة.

إن الجبل يتطلب النقاء والبســاطة، يتطلب الزهد. "يا سماءً فوقي! أيتها الســماء الطاهرة العميقة! يا لجة الضــياء! إنني إذ أرنو إليك، أنتفض بأشواق إلهية. أن أقذف بنفسي في علوك ـــ ذاك هو عمقي! أن أختبئ في نقائك ـــ تلك هي براءتي! وعندما كنت أهيم وحيداً، إلامَ جاعت نفســي في الليل وعلى المســالك الغادرة؟ وعندما تســلقت الجبال، عن مَن كنت أبحث دوماً فوق الجبال إن لم يكن عنكِ؟ وإن كل هيماني وتسلقي للجبال لم يكن سوى ضرورة ووسيلة خرقاء: إن كل إرادتي لا ترغب إلا في الطيران، في الطيران إليكِ!" [نيتشه، "هكذا تكلم زرادشت"].

هذه كلمات كتبها فريدريك نيتشه، الفيلسوف الذي ناصر "إرادة القوة"، في جبال إنجادين المنعزلة. وقد لا تعدو هذه الكلمات لدى البعض كونها فيوضات وجدانية. أما لدى آخرين، فقد تختزن المعنى الباطن للموقف الروحي البطولي، الذي روحه الفعل، وانضباط السيطرة الذاتية التي لا تعرف الرحمة. وهيكل هذه الروح هو العظمة البدئية للقمم، والمجلدات، والصدوع، والسماء الزرقاء التي لا تحد.

وفي هذا السياق، تلتقي القمم الجبلية والقمم الروحية في واقع واحد بسيط وقوي.

٢: نبذٌ في ألوهيةِ الجبالِ

في مقالٍ نشــر في مجلة النادي الألبي الإيطالي، جلى (س. ماناريســي) بعباراتٍ نافذةٍ أمرٌ لا يمكن الإمعان في توكيده ، ألا وهو ضرورة مغالبة ذلك التضاد القاصر بين النموذج الـمتبحر والواهن بدنياً ـ ذاك الذي انقطع عن قوى الجسد والحياة الأشـد عمقاً بسـبب حبسـه نفسـه في ثقافةٍ قوامها الكلمات والكتب ــــ وبين النموذج الرياضي والــــمعافى والقوي بدنياً ــــ الذي يفتقر رغم ذلك إلى أي مرجعياتٍ ميتافيزيقية. فمن الضــــروري اليوم تجاوز أحادية الجانب في كلا هذين النموذجين وبلوغ حالةٍ أكثر اكتمالاً ، ونعني بذلك كائناً بشـرياً تسـتحيل الروحِ فيه قوةً وحياةً ، ويغدو الانضباط البدني بدوره مدخلاً لانضباطٍ روحانيٍ ورمزاً له بل ويكاد يكون طقساً من طقوسه.

وقد زعم (س. ماناريسي) مراراً أن تسلق الجبال، من بين ســائر الرياضــات، هو الذي يقدم الفرص الأيســر منالاً لتحقيق هذا الاتحاد بين الجسد والروح. وحقاً، فإن ضخامة

الجبال العظيمة وصمتها وجلالها تميل بالنفس ميلاً فطرياً نحو ما هو أعظم من البشـري ، وبذلك تجذب خيار الناس إلى النقطة التي يغدو فيها الجانب البدني للتسلق ـ بكل ما يتطلبه من شجاعةٍ وسيطرةٍ ذاتيةٍ وصفاءٍ ذهنيٍ ــ والتحقق الروحاني الباطني، جزأين لا ينفصلان ومتكاملين لحقيقةٍ واحدةٍ.

ومن الـــممتع ملاحظة أن رؤىً كهذه ، والتي يشرع اليوم أفرادٌ مؤهلون في توكيدها لتعزيز التوجهات القويمة لدى أجيال المســتقبل ، يمكن في الوقت ذاته تقصــي أثرها في تقليدٍ ضــاربٍ في القدم ، في شــيءٍ يمكن نعته بالتقليدي بأوسع معاني الكلمة. ورغم أن الأقدمين لم يمارسـوا تسـلق الجبال ــ باستثناء نوادر بدائيةٍ ــ إلا أنهم ملكوا حساً حياً بقداسة الجبل ورمزيته. كما اعتقدوا ـ وهو أمرٌ له دلالته ـ أن صــعود الجبـال والعيش فيهـا كـان امتيـازاً للأبطـال والـــمستنيرين ، وبعبارةٍ أخرى، لأولئك الكائنات الذين يعتقد أنهم تجاوزوا حدود حياة السهول المبتذلة والعادية.

سـأعرض في الصـفحات التالية بضـع ملاحظاتٍ حول المفهوم التقليدي لألوهية الجبل ، رانياً بصـري إلى معناه الباطن وراء رموزه. ولعلي بملاحظاتي هذه أستحضر بعض مناحي الجانب الروحاني لإنجازات تسـلق الجبال ، التي لا يمثل الوصـف التقني لها سـوى البعد الخارجي، أو تلك "الفضالة الهامدة" (caput mortuum).

إن مفهوم ألوهية الجبال موجودٌ على قدم المساواة في التقاليد الشرقية والغربية ؛ من الصـينيين إلى الآزتيك في أمريكا ما قبل كولومبوس ؛ ومن المصـريين إلى الآريين النورديين الجرمانيين ؛ ومن اليونانيين إلى الإيرانيين فالهندوس. ويجري التعبير عن هذا المفهوم في صور أساطير وحكاياتٍ تتعلق إما بجبل الآلهة أو الأبطال ــــ الذي يزعم أنه مقر أولئك الذين "رفعوا إلى هناك" ــــ أو بأماكن تسكنها قوىً غامضةٌ من المجد والخلود.

إن الأساس العام لرمزية الجبل بسيطٌ : فبما أن الأرض قد ارتبطتْ بكل ما هو بشريٍ (واشتقاق كلمة human "بشري"

في اللاتينية من humus "تربة")، فإن قمم الأرض التي تبلغ السـماء وتتجلى بالثلوج الأبدية ، قد اعتبرتْ تلقائياً المادة الأنسب للتعبير ـــ عبر المـجازات ـــ عن حالات الوعي المتعالية والتحققات الروحانية الباطنية ، وعن تجليات أنماط الوجود غير المعتادة، والتي غالباً ما صـورتْ تمثيلياً في هيئة آلهةٍ وكائناتٍ فوق طبيعية. وهكذا، لا نقرأ فقط عن الجبال بوصـفها "مقار" رمزيةً للآلهة ، بل نلفي أيضـاً تقاليد ذات صـلةٍ ، مثل تلك الخاصـة بالآريين الأقدمين القاطنين في إيران وميديا ، حيث لم يشيد القوم ـ وفْقاً لزينوفون ـ معابد لآلهتهم قط ، بل اتخذوا قمم الجبال لإقامة طقوس النار وتبجيل إله الضـياء وتقديم القرابين له. لقد رأتْ هذه الثقافات في الجبال مواقع أجدى وأكثر عظمةً ، وأقرب تنظيرياً إلى الإلهي من أي معبدٍ من صـنع البشـر أو بناءٍ مقدس.

ووفْقاً للهندوس، فإن أشـد سـلاسـل الجبال إلهيةً هي الهيمالايا ، وهو اسـمٌ يعني بالسـنسـكريتية "مقر الثلوج".

وبصــورةٍ أدق، فإن جبل "ميرو" هو الجبل المقدس ويعتقد أن موقعه في الهيمالايا. ومن الأهمية بمكانٍ ملاحظة أمرين : أولهما، أن جبل "ميرو" يتصور بوصفه المكان الذي مارس فيه "شيفا" ــ الزاهد العظيم ــ تأملاته. وثانيهما، أن "شيفا" أحرق من هنا "كاما" ـ إله الحب الهندوسي ـ حينما حاول الأخير تعريض قلبه للشـهوة. ففي التقليد الهندوسـي، ترتبط فكرة الزهد المطلق والتطهير الصارم للطبيعة بأعلى قمةٍ جبلية. وهذه الفكرة لا منفذ لها لكل ما ينبع من الشـهوة والرغبة ، وهي لذلك مسـتقرةٌ بمعنىً متعالٍ. ومن هنا، نجد في الصـيغ الفيدية القديمة لتكريس الــــملوك صـــورة الجبل رامزةً لاسـتقرار القوة والــــملك (الإمبيريوم) الذي سـيتولاه الــــملك. وعلاوةً على ذلك، نرى في "الماهاباراتا" ارتحال "أرجونا" إلى الهيمالايا لــممارسة الزهد ؛ لأنه قد كتب أن "الجبال العالية وحْدها هي التي كان بمقدوره أن يبلغ فيها الرؤية الإلهية". وبالمثل، سـافر الإمبراطور "يودهيشـتيرا" إلى الهيمالايا ليحقق تـأليه عبر اعتلاء "عربة" "ملك الآلهة".

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الكلمة السنسكريتية paradesha تعني "الـموقع الـمرتفع" ، أو "المنطقة العالية" ، وهي لذلك تعني القمة الجبلية بمعنى ماديٍ محددٍ. بيد أن paradesha قد ترتبط اشـتقاقياً بالكلمة الكلدانية pardes ؛ ومن هنا جاء مصـطلح "الفردوس" (paradise) ، الذي اسـتحال مفهوماً لاهوتياً مذهبياً في العقيدة اليهودية المسـيحية اللاحقة. ففي الفكرة الآرية البدئية عن الفردوس، نجد ارتباطاً وثيقاً بمفهوم المرتفعات وقمم الجبال ؛ وهو ارتباطٌ ـ كما سنرى لاحقاً ـ قد صيغ بأسلوبٍ جليٍ في المفهوم الدوري الآخي لجبل الأوليمب.

ويتحتم علي عند هذه النقطة ذكر الأساطير الهلينية لتلك الشخصيات الأسطورية التي نقلتْ إلى جبلٍ ما. فمن المعروف أن الهلينيين، مثلهم مثل سائر القبائل الآرية الأخرى تقريباً، حملوا رؤيةً أرستقراطيةً محضاً لما بعد الموت. فقد كان يظن أن مصير عامة الناس، أولئك الذين لم يرفعوا أنفسهم قط فوق الحياة العادية، هو "هاديس" ؛

ونعني بذلك وجوداً يرقانياً وفضالياً بعد الـمـوت يفتقر للوعي الحق ، ويقضى في عالم الظلال السفلي. أما الخلود ـــ فضلاً عن خلود آلهة الأوليمب ـــــ فقد كان امتيازاً للأبطال ، أو بعبارةٍ أخرى، كان الإنجاز الاســـتثنائي لقلةٍ من الكائنات المتفوقة. ففي أقدم التقاليد الهليذية نجد أن تحقيق الأبطال للخلود غالباً ما صور عبر رمزية صعودهم الجبال أو اختفائهم فيها. وهكذا نلفي مجدداً لغز المـــرتفعات ، إذ يجب علينا أن نرى في هذا الاختفاء الـرمز المادي لاستحالةٍ روحانية. إن تعبيرات "الاختفاء"، و"أن يغدو المرء غير مرئيٍ"، و"أن يرفع إلى القمم"، لا ينبغي أن تؤخذ بمعناها الحرفي ، بل هي تعني جوهرياً الولوج الفعلي إلى عالم ما وراء الحواس حيث لا موت هناك ، والانعتاق من عالم الأجســـاد المادية المرئي، وهو عالم التجربة البشرية العامة.

ولا ينحصر هذا التقليد في اليونان بأي حالٍ. ففي البوذية نجد ذكراً لجبلٍ يقال إن أولئك الذين يبلغون الاستنارة الروحانية يختفون فيه ـــــ أولئك الذين وصفهم نص "ماجيما نيكايو"

بأنهم "رجالٌ متجاوزون، كائناتٌ لا تقهر وسليمةٌ، همدتْ لديهم الشهوة وتحرروا منها". وتتحدث التقاليد الطاوية الصينية عن جبل "كوين-لون" ، الذي عثرتْ فيه كائناتٌ ملكيةٌ أسطوريةٌ على ترياق الخلود. ونلفي شيئاً مماثلاً في بعض التقاليد الإسلامية الشرقية التي تتعلق بأشخاصٍ خاضوا تجربة الاستنارة ونقلوا إلى جبلٍ ما ، وبذلك نجوا من تجربة الموت. وتحدث المصريون القدماء عن جبلٍ ("سيث أمنتيت") يحوي ممراً يلج من خلاله أولئك المقدر لهم الخلود "الشمسي" إلى "أرضٍ ظافرةٍ" ؛ حيث "يعلن القادة القاطنون بجوار عرش الإله العظيم حياتهم الأبدية وقوتهم"، وفْقاً لنقشٍ هيروغليفيٍ.

وباجتياز المحيط الأطلسي، نجد في مكسيك ما قبل كولومبوس مراسلةً مبهرةً مع هذه الرموز : فقد كان ينظر إلى جبل "كولهوا كان" العظيم (ويعني "الجبل المقوس" لأن قمته تنحني قليلاً نحو الأسفل) بوصفه نقطةً إلهيةً ، تحتفظ ـــ بمعزلٍ عن علوها ـــ باتصالٍ مع المناطق السفلى.

ووفْقاً للتقاليد الأمريكية القديمة، فقد كان يعتقد أن بعض أباطرة الآزتيك قد اختفوا في جبلٍ مماثلٍ. ومن المعروف أن هذا الموضوع موجودٌ في أساطير العصور الوسطى الرومانية الجرمانية الغربية : حيث كان يعتقد أن جبالاً مثل "كيفهاوزر" و"أودنبيرغ" هي الأماكن التي نقل إليها ملوكٌ مثل شارلمان وآرثر وفردريك الأول وفردريك الثاني. ويزعم أن هؤلاء الملوك ليسوا موتى بل ينتظرون حين الظهور مجدداً. وفي دورة أساطير الكأس المقدسة نلفي جبل "مونتسالفا" ، الذي يعني ـ وفْقاً لغينون ـ "جبل الصحة" أو "جبل الخلاص". وكانتْ صرخة حرب فرسان العصور الوسطى هي "مونجوا" (Montjoie). وفي أسطورةٍ لا يقابلها أي نظيرٍ تاريخيٍ ، بيد أنها تملك معنىً روحانياً غنياً للغاية ، كان اجتيازُ الجبل هو الخطوة التي سبقت التتويج الإمبراطوري المقدس لآرثر. ولا يسعني هنا وصف المعنى الباطن لهذه الرموز والأساطير بالتفصيل ، لا سيما تلك المتعلقة بالملوك الذين اختفوا لكنهم سيعودون يوماً ما.

سـأكتفي فقط بالقول إننا نجد في هذه الأسـاطير ذات الـمناشئ المتعددة مـوضوعاً مشتركاً للجبل بوصفه مقراً للخلود ، حيث يتحقق القوم الروحانيون ويختفي الأبطال.

تتعلق ملاحظاتي التالية بنقطتين : الجبل بوصـفه مقر الـ "هوما" والمجد ، والجبل بوصفه "فالهالا".

يناظر الـمصطلح الإيراني haoma الـمصطلح السنسكريتي soma ، وهو ما يسمى بـ "ترياق الخلود". وفي هاتين الفكرتين الآريتين القديمتين نلفي اتحاداً لـمفاهيم مـتنوعة ، بعضها واقعيٌ وبعضـها رمزيٌ، بعضـها ماديٌ وبعضـها الآخر قابلٌ للترجمة إلى مصـطلحاتٍ تصـف التجربة الروحانية. فالتقاليد الهندوسية، على سبيل المثال، تصف الـ "سوما" بوصفه إلهاً وعصارة نباتٍ قادرةً على بعث مشاعر الابتهاج في آنٍ معاً. وكانتْ هذه المشاعر تـحظى بتقديرٍ كبيرٍ وتستحضر خلال طقوس التحول الباطني لتذويق المرء طعم الخلود.

ومثلما شبه بوذا حالة "النيرفانا" ـ "التي لا هنا فيها ولا هناك، ولا مجيء ولا ذهاب، بل سكينةٌ واستنارةٌ كأنها مـحيطٌ لا

ينتهي" ـ بـجبلٍ عالٍ ، نقرأ بالمثل في "ياشنا" أن الـ "هـوما" الغامض ينبت فوق الجبال العالية. وهكذا نجد مجدداً اقتران فكرة الـــمرتفعات بفكرة الحماسة القادرة على تحويل الناس وإلهامهم وقيادتهم إلى ما هو بعد البشـــري والفاني والزائل. ونلفي ذات المـــوضـوع أيضـاً في اليونان في "الديونيسـية" الـــمبكرة. فوفقاً لشهاداتٍ عريقةٍ للغاية ، كان أولئك الذين تتملكهم "الــجذبة الإلهية لديونيسوس" خلال المــهرجانات الدينية ، يقادون نحو القمم البرية لـجبال تراقيا بقوةٍ غريبةٍ وطاغيةٍ تنبع في نفوسهم.

بيد أن ثمة شـيئاً آخر يمكن أن يقوم كل ما لا يزال فوضـوياً وغير نقي تـماماً على المستوى الديونيسي ؛ ونعني بذلك رؤيةً إيرانيةً قديمةً يتبناها نص "ياشـت" بـــــخصـوص الجبل ، وتـــحديداً جبل "أوشي-دارينا" العظيم، الذي هو أيضاً مقر الـمجد.

ففي التقليد الإيراني، لم يكن "المـــــجد" (hvareno أو farr) مفهوماً تجريدياً. بل كان يتصور بوصفه قوةً حقيقيةً وماديةً

تقريباً ، وإن كانتْ غير مرئيةٍ ومن منشأٍ غير بشريٍ. وكان المـجد عـموماً امتيازاً للعرق الآري الـمضيء ، وبصورةٍ أخص كان ملكاً للملوك والكهنة والفاتحين الـمنتمين لهذا العرق. وكانتْ ثمة آيةٌ تشهد على حضور المـجد: ونعني بها النصر. وقد نسب المـجد إلى أصولٍ شمسيةٍ ، بـما أن الشمس قد اعتبرتْ رمزاً لكيانٍ مـضيءٍ ينتصر كل صباحٍ على الظلام. وعبر نقل هذه المـفاهيم إلى منظور الباطن ، عبر الـمجد عن إنجازات الأعراق الظافرة التي كان التفوق لديها قوةً (نصراً) والقوة تفوقاً ، تـماماً كـما هو الحال في الكائنات الســماوية الشـمسـية والخالدة. وقد كتب في "ياشت" ليس فقط أن نبات الـ "هوما" (الـمرتبط بالحالات الديونيسـية) ينبت على الجبال ، بل أيضـاً أن أعظم الجبال، "أوشي-دارينا"، هو مقر الـمجد الآري.

وكـما قلت آنفاً، فقد نظر إلى الجبل أيضاً بوصفه "فالهالا". وقد شاع مصطلح "فالهالا" بفضل أوبرا ريتشارد فاغنر ، التي تتبنى في مواضع عدةٍ تفسيراً حرفياً للرؤى النوردية

الاسكندنافية القديمة في "إيدا" ، وهي الرؤى التي استمد منها فاغنر جل إلهامه. بيد أن هذه الرؤى قابلةُ لتفسيرات أشد عمقاً. فكلمة "فالهالا" تعني لفظياً "بلاط الأبطال الساقطين" ، والملك فيها هو "أودن". ويعبر هذا عن مفهوم مقرٍ ممتازٍ للخلود (ففي هذه التقاليد، كما في التقاليد اليونانية، يقدر لمعظم الناس أن يحيوا بعد الموت حياةً مظلمةً ويرقانيةً في "نيفلهيم") ، وهو مقرٌ محفوظٌ للنبلاء والأبطال الذين يموتون في ساحة المعركة. وفْقاً للمثل القائل تقريباً: "إن دماء الأبطال أحب إلى الرب من مداد الفلاسفة وصلوات المؤمنين" ، فقد كان الموت في ساحة المعركة ـ في هذه التقاليد القديمة ـ هو القربان الأشد عزةً عند الإله الأسمى ("أودن" أو "فوتان" أو "تيوز") ، والأكثر إثماراً من بين سائر المآثر الفوق-بشرية. لقد حول "أودن" الجنود الساقطين إلى أبناءٍ له وجعلهم خالدين ، مع الملوك المؤلهين، في "فالهالا". وغالباً ما كان هذا المقر يقرن بـ

"آسغارد" ، مدينة الـ "آسن"، وهم الكائنات الإلهية المضيئة المنخرطة في صراعٍ أبديٍ ضد مخلوقات الأرض المظلمة.

وقد تمتعتْ مفاهيم "فالهالا" و"آسغارد" أصلاً بعلاقةٍ مباشرةٍ مع الجبل ، إلى حد أن "فالهالا" غدت اسماً لجبالٍ سويديةٍ واسكندنافيةٍ أخرى. وعلاوةً على ذلك، فحينما كان يعتقد بوجودها فوق جبالٍ قديمةٍ، مثل "هيلغافيل" و"كروسهولار" و"هليدسكجالف" ، فقد كان يظن أن "فالهالا" هي مقر الأبطال والحكام المؤلهين. وغالباً ما يشار إلى "آسغارد" في "إيدا" بوصفها "غليتميربيورغ" ، أي "الجبل المشرق"، أو بوصفها "هيمينبيورغ" ، حيث تنصهر فيها فكرتا الجبل والسماء المضيئة، أو صبغة السماوي المضيء. وهكذا لا نزال نلفي الموضوع المركزي لـ "آسغارد" بوصفها جبلاً شاهقاً للغاية ، يشع فوق قمته الجليدية ضياءٌ أبديٌ يعلو السحب والضباب.

وحينما يتصور "فالهالا" بوصفه جبلاً، فإنه يكون المكان الذي تنطلق منه ما يسمى بـ "الجوقة البرية" (Wildes Heer)

وإليه تـــؤوب. وهذه فكرةٌ نورديةٌ شعبيةٌ قديمةٌ صيغتْ على مستوىً أرفع حينما قرنتْ بالجيش الذي يقوده "أودن" ، وهو جيشٌ قوامه الأبطال الساقطون. وفْقاً لهذا التقليد، فإن التضـــحية البطولية بالحياة (والتي كانتْ تســـمى في التقليد الروماني mors triumphalis) قد أضافتْ جندياً جديداً إلى ذلك الجيش الروحاني الذي لا يقاوم ، الــــــذي كان "أودن" يـــــحتاجه لغايةٍ قصوى ومتعاليةٍ : ألا وهي القتال ضد الـ "راغنا روكر" (ragna rokkr)، أي الغسق الـمقدر للإلهي الذي كمن للعالم منذ الماضي البعيد.

ومن خلال هذه التقاليد، مأخوذةً في معناها الباطن لا في صورتها الأسطورية الخارجية ، نبلغ الرؤية الأسمى لـــهذه الدورة من الأساطير الـــمتعلقة بألوهية الجبل ، والتي تكاد تكون صدىً لهذه الحقائق البعيدة. فمقر الاستفاقة والبطولة ، ومكان الــحــماسة القائدة نــحو الحالات الــمتعالية ؛ ومكان الزهد النقي والقوة الشمسية الظافرة التي تـــقاوم القوى التي تشل الحياة وتظلمها وتحط من قدْرها ـ كل هذا

يبدو أنه يشكل الإدراك الرمزي لـلأقدمين تـجاه الجبل. ويبرز هذا الإدراك في دورةٍ من القصص والأساطير المجبولة على مزايا متشابهةٍ كثيرةٍ ، وما الأمثلة المذكورة آنفاً إلا نزرٌ يسيرٌ من بين مجموعةٍ واسعةٍ للغاية.

وبطبيعة الحال، فأنا لا أقترح تبني استحضاراتٍ لأساطير عفا عليها الزمن ، ومع ذلك، فليستْ هذه مجرد قائمةٍ بأمثلةٍ غريبةٍ من التاريخ. فخلف الأسطورة والرمز المحكومين بالزمن ثمة روحٌ يمكنها دوماً أن تنبعث من جديدٍ وتعبر عن ذاتها في صورٍ وأفعالٍ جديدةٍ : وهذا هو الأمر المهم حقاً. إن خير ما يمكننا تمنيه للأجيال الجديدة هو ألا يستحيل تسلق الجبال تدنيساً لها. وعلاوةً على ذلك، فأنا آمل بصدقٍ أن تنبعث تلك الأحاسيس العميقة ــ الكامنة في رحم تأليه الأقدمين الأسطوري للجبل ــ بصورةٍ متزايدةٍ ، وأن يغدو لها أثرٌ تنويريٌ على أولئك الذين تقودهم اليوم غريزة التغلب على القيود الملازمة للحياة التجارية والميكانيكية اليومية في السهول ، والذين يتسلقون الصخور والحيود

والجدران المحاطة بالسماء وبالهاوية ، ما ضين قدماً نحو قممٍ جليديةٍ ومشرقةٍ

٣: روحانية الجبل

ان التحدث عن روحانية الجبل اليوم ليس بالامر الهين، لا سيما وانها اصبحت في كثير من الاحوال من المبتذلات. لعل عصورا قليلة قبل عصرنا سمعت هذا القدر الهائل من الحديث عن "الروح"، فقد استحال "الروح" و"الروحاني" نوعا من التوابل التي تذوق بها شتى الاطباق. غير ان هذا التعميم يتناقض تناقضا صارخا مع حقيقة افتقار العصر الحديث الى المبادئ والرؤى المتعالية الاصيلة.

ولا ينبغي لنا ان نعد معظم الاشارات الحديثة الى الروحانية ظواهر ايجابية، بل هي اشواق مرتبكة لا قيمة لها ما لم تتلق مزيدا من التطوير في اتجاه قويم، بمعنى الوعي الذاتي الراسخ الناتج عن الاتصال بواقع اسمى. واود هنا ان ابسط افكاري بخصوص الجبال والرياضات الالبية، واناقش الامكانات الروحية الحقة التي تكتنزها.

ان هذه الامكانات حقيقية، ولا صلة لها بتقاليع عصرنا او بالحماسة العابرة للاجيال الناشئة، ونحن نعلم ذلك لان

روحانية الجبل تقليدية بمعناها الاسمى والادق والاشمل. لقد جمعت ادلة محددة في محاولة لبيان انه منذ اقدم العصـــور، وفي كل حضارة تقريبا، كان ينظر الى الجبل بانتظام بوصفه رمزا لحالات الوجود الباطنية والمتعالية، وبوصـــفه المقر المجازي للطبائع الالهية والابطال والكائنات المســتحيلة التي رفعت فوق الشرط البشري المجرد. ووفقا لاساطير شتى، فان تسلق الجبال او الرفع الى القمم كان يرمز الى سيرورة متعالية غامضة، وتكامل روحي، ومشاركة في خلود اوليمبي. وبالنسبة لاولئك الذين لا يتفقون مع التفسير التزييفي للقرن التاسع عشر المادي والعقلاني ـــ الذي زعم ان الاساطير القديمة لم تكن سوى شعر واوهام اعتباطية ــ فان كل هذا يكتسي قيمة الشهادة المحددة التي ينبغي استقصاء معناها الاشد خفاء. ان كل هذه الحكايات القديمة ـــ التي يتردد فيها موضوع قداسة الجبل ـــ يجب ان يعتبرها هؤلاء القوم تلميحات الى واقع روحي، لا يمكن ان يكون ارتباطه برمزية الجبل عرضيا. فالانسان القديم لم يختر الجبل اعتباطا وسيلة

للتعبير عن معان متعالية بوضــوح، بل دفع لاتخاذ الجبل رمزا بسبب المناظرة، او بالاحرى بسبب ذاك الحدس الذي احدثته تجربة الجبل في اعمق اغوار كيانه، شريطة ان تهذب هذه التجربة على نحو كاف.

ولتحليل ما يرمز اليه الجبل تحليلا اعمق، يتحتم اولا رفض كل التفسيرات المعاصـرة لروحانية الجبل وتسـلقه. بعبارة اخرى، من الضـروري حصـر نطاقها لاخضـاع وجهات نظرها المشروطة المختلفة لوجهة نظر واحدة مطلقة.

اول هذه الافتراضـات الحالية هي الرؤية الوجدانية المحضـة للجبل. وانا اشير هنا الى عالم البلاغة الادبية والشعر من اردأ الانواع، الذي يتألف من العاطفية البرجوازية والمثالية التقليدية المبتذلة. فمن هذا المنظور، يرى الجبل جزءا من المشـهد الطبيعي، من بعيد، ويصـور بوصـفه "لوحة فنية". يصـف الشـعراء الجبل بعبارات براقة ومبهجة تفتقر الى المحتوى الجاد ولا تعبر عن تجربة صـادقة ومباشـرة. ان ابن الجبل والمتسـلق الحق لا يشـتركان في هذه البلاغة. وهذه

البلاغة المحصورة في العالم الجمالي للكتب لم تعد رائجة لحسن الحظ، اذ ينظر اليها الان بوصفها فضلات الرومانسية في القرن التاسع عشر، وتعويضا لجيل برجوازي لم يتوق الى القمم الثلجية الا من خلال حماسة لفظية سهلة ومبتذلات غنائية.

ثانيا، نجد روحانية الجبل متصورة وفقا لمصطلحات الطبيعانية. وهذه رؤية جيل تميز بشعور مناقض لما وصفته لتوى؛ ويمكن نعت هذا الجيل بـــ "جيل الازمة"، وهو في جملته نتاج الماني. فمن رحم حاجة غامضة لتعويض عضوي وحيوي وحتى نفسي، ومن رحم ثورة غريزية ضد حضارة استحالت مرادفا للذهنية الجافة والقوى الميكانيكية والنفعية والامتثالية، حدث خروج جماعي نحو الطبيعة وبرزت حاجة مطلقة للجبل ليمثل ما هو مضاد للمدينة ومضاد للثقافة. وهكذا انبعثت صوفية بدائية جديدة تجاه الطبيعة والرياضات الممارسة فيها. وهذه البدائية الجديدة تستعيد معظم افكار (جان جاك روسو) وذات الاتهام الموجه للحضارة الذي

روج له امثال (نورداو) و(فرويد) و(ليسينج) و(بيرجمان) و(كلانجز).

وفيما يتعلق بهذه الظاهرة، من المهم تجنب سوء الفهم. فمن البديهي انه لا عيب في فكرة حاجة الناس الى الراحة والاسترخاء واستمداد قوة جديدة من الاتصال بالطبيعة والجبل. بل ان هذا امر مرغوب فيه؛ ولهذا تضطلع الرياضات الجبلية بدور في التجديد الاجتماعي ذي القيمة التي لا شك فيها. ومع ذلك، لا ينبغي لنا الخلط بين حقائق متباينة للغاية، والاستنتاج بان مشاعر الرفاه البدني والانتعاش العضوي لها صلة بالروحانية؛ ولا ينبغي لنا ان نعتقد ان الانسان المنغمس في مناخ من الممارسة البدائية والطبيعانية هو اقرب الى الجزء الجوهري من كيانه مما يكون عليه حين ينخرط في انضباطات وصراعات الحياة المتحضرة. ان الهروبية، ورد الفعل المصاحب لها، وهذا التمجيد للطبيعة، يكفي في معظم الاحوال ــ بسبب سماته السلبية ــ لحصر نطاق الطبيعانية. ان المستوى الذي يمكن للشخصية

الروحية ان تحقق فيه او تعزز حسها بذاتها هو وراء كل من الحضارة (بالمعاني المادية والاجتماعية والذهنية الضيقة التي اتخذها المصطلح في الاونة الاخيرة) و"مضاد الحضارة"، ونعني به "الطبيعة" المفهومة بوصفها مجرد نقيض للمجتمع المتحضر. هذا هو المستوى الذي اتحدث عنه، لا مستوى الظروف وافضل السبل لاصلاح او صيانة الاجساد والادمغة التي تضررت من السموم المادية والنفسية للحياة الحديثة.

ثالثا، من الضروري تجاوز الموقف الذي يحصر روحانية الجبل وتسلقه في مجرد احاسيس البطولة البدنية؛ وهذا هو موقف النخبة التي تمارس التسلق بجد ونشاط. ان الجبل روح في كل ما ينطوي عليه: انضباط الاعصاب والجسد، وشجاعة صفاء الذهن، والرغبة في الغزو، والنزوع الى الانخراط في الفعل المحض في بيئة من القوى المحضة. والان، فان اي شيء ينطوي على قيمة تربوية عالية يستحق مزيدا من التوصيف. وهذا التوصيف يتعلق مرة اخرى

بالغايات. فمثلما ان للطبيعانية مسوغات وجودها في مستوى معين، فان لتسلق الجبال مسوغاته الخاصة ليكون مدرسة للخصال المذكورة انفا. ولا ريب انه من المرغوب فيه ان تصبح الاجيال الناشئة قادرة على روح الجسارة واللياقة النفسية والبدنية الناتجة عن الممارسة النشطة لتسلق الجبال. ولكن هل هذا هو المستوى الاسمى الذي يمكنهم الطموح اليه؟

وحينما نفحص الجانب الباطني لهذه القضية، اي بترك الخصال التي يمكن ويجب تقديرها في الاجيال الناشئة جانبا (مثل الصحة والطاقة والانضباط الذاتي)، فلا يسعنا الا ملاحظة حضور حب المخاطرة بل والبطولة بين شبابنا. وكثيرا ما تقتصر قيمة هذه الخصال على مجرد الاحساس، وتكون نتيجتها النهائية رؤية متطرفة للشخصية والفحولة بوصفها مادية محضة وصلبة ومنغلقة. وهذه الرؤية الحديثة متضخمة بالفعل على نحو غير طبيعي، وهي يقينا لا تشكل الشرط الامثل لاستعادة روحانية حقة ومحررة ومتعالية.

ويجب الاقرار بان تسلق الجبال، حينما يختبر وفقا لهذه الرؤية فحسب، لن يسهل تمييزه عن السعي وراء الانفعالات لذاتها. وهذا السعي وراء الاحاسيس الجذرية يولد، لا سيما في الولايات المتحدة، شتى صنوف المآثر الشاذة واليائسة والاعمال البهلوانية الجسورة، مثل القفز في الهواء من طائرة الى اخرى، والمجازفات المتهورة، والرياضات القاسية، وما الى ذلك. وبالنظر الى كل الامور، فان هذه الاشياء لا تختلف كثيرا عن غيرها من المثيرات او المخدرات، التي يوحي استخدامها بغياب الحس الحقيقي بالشخصية لا بحضوره، وبالحاجة الى الذهول والغياب عن الوعي لا الى امتلاك الذات. وحتى المكون التقني في تسلق الجبال قد ينحط بسهولة؛ فكثيرا ما نجد متسلقين يميلون اليا، بحكم العادة، الى الانخراط في شتى انواع الصعود، بما في ذلك صعود ناطحات السحاب. ومع ذلك، فمن المؤكد انه اذا كان ثمة عنصر منفتح على فهم تحقق اسمى في تجربة الجبل، فهو العنصر العاطفي او الحسي؛ بيد انه من الضروري ان

نرى في ذلك مجرد نقطة انطلاق، ومادة خام، وان نعتبر التجربة الحسية مجرد وسيلة لا غاية في ذاتها.

يتبنى الانسـان الحديث موقفا خاطئا تماما تجاه ما يشـعر به. فالحس بالنسـبة اليه شـيء يبدأ وينتهي في ذاته، وهو تجاهه سـلبي. وهو اضـعف من ان يفصـل عن الحس او العاطفة العنصـر غير العقلاني المحض، او ما هو في هذا الحس مجرد انطباع او اضـطراب باطني. وهو عاجز عن ان يشـتق منه، بفعل باطني، شـيئا يمكن ان تسـتخدمه الروح مباشـرة وبصورة نشطة بوصفه معرفة اسمى.

وهذا هو حال تجربة الجبل ايضـا. فاولئك الذين ينجذبون انجذابا لا يقاوم الى الجبال غالبا ما لم يختبروا في العاطفة الا عظمة تفوق ادراكهم. انهم لم يتعلموا اتقان حالة باطنية جديدة تبزغ من اعمق اغوار كياناتهم. ولذا فهم لا يعرفون لماذا ينشدون افاقا تزداد اتساعا، وسموات اكثر حرية، وقمما اشـد مراسا؛ او لماذا اصبحوا، من قمة الى قمة، ومن جدار الى جـدار، ومن خطر الى خطر، ومن خلال تجاربهم،

زا هدين على نحو غير مفهوم في كل ما كان يظهر لهم في حياتهم العادية الاكثر حيوية واهمية واثارة. ان ما يستهويهم ويحركهم هو الرسالة الباطنية القوية التي تتجلى مباشرة في كل شيء في الجبال. فالجبل يمكن ان يكون مدمرا، وهو مهيب في عظمته وعزلته وصعوبة مناله وصمته، وفي الطبيعة البدئية لعواصفه، وفي ثباته عبر تعاقب الفصول والتشكل والتحلل المستمر لكل السحب ــ كل هذه الاشياء يجب ان تعتبر تلميحات الى الخلود.

وهكذا، يمكن للجبل ان يعمل بوصفه رمزا، وبوصفه كذلك يمكن ان يقود الى تحقق باطني مناظر. واغلب الظن ان الانسان يتوقف عند المستوى العاطفي، الذي يتسم عادة بصفة الاضطراب بدلا من شعور الغزو والمعرفة الخاصة. ان عدم عقلانية الانطباعات والرؤى والاندفاعات غير المفسرة وافعال البطولة المجانية تحث الانسان على المضي قدما في مسالك صاعدة؛ وهكذا يبدأ في نهاية المطاف في الفعل بدافع باطني. وفي سياق اللاشعور يجد نفسه ولوجا في واقع

اوسع يستحيل من خلاله الى حالة من السكينة والاكتفاء الذاتي والبســـاطة والنقاء. وعلاوة على ذلك، يتلقى تدفقا يكاد يكون خارقا للطبيعة من الطاقات التي لا يمكن تفسيرها من خلال حتمية الفسيولوجيا. كما يشعر بارادة لا تقهر للمضـــي قدما، وللالتزام مجددا، ولتحدي قمم جديدة وهاويات جديدة ووجوه صخرية جديدة. وفي هذا الاندفاع تحديدا نجد عدم كفاية ترجمة الفعل المادي فيما يتعلق بمعناه (تعالي النزوع الروحي فيما يتعلق بالظروف الخارجية)، وبالافعال والرؤى والافعال الجســـورة التي اشاعت يقظته والتي لا تزال تشكل المادة الضرورية للتعبير الملموس عن ذلك الاندفاع عينه.

ولا اظن انه من التسرع الاستنتاج بان هذا التصميم لابد وان يكون الســـر وراء اعظم المآثر الجبلية التي انجزت قط، تلك المآثر التي يبدو انها تجاوزت حقا حدود الامكانات البشـرية العادية. ومع ذلك، فان هذا المستوى من الانجاز يجب ان يصـحبه تحقق حق، وتجاوز للعنصـر الغريزي وغير

العقلاني، ووعي ذاتي كامل وراسخ، ونعني بذلك تحويل تجربة الجبل الى منهاج وجود. حينئذ ينبثق في خيار الذوات الشعور بان كل نزهة جبلية، وكل تسلق، وكل غزو، وكل فعل جسور ليست الا وسائل يعبر من خلالها عن واقع غير مادي كان بامكانه التعبير عنه بطرق اخرى ايضا. هذه اذن هي قوة اولئك الذين يمكن القول انهم لا يعودون قط من القمم الى السهول. هذه قوة اولئك الذين لم يعد لديهم خروج او عودة لان الجبل في روحهم، لان الرمز اصبح حقيقة، ولان كل الشوائب قد طرحت. فبالنسبة لهؤلاء، لم يعد الجبل مغامرة جديدة او هروبا رومانسيا او انتشاء حسيا، او بطولة لذاتها او رياضة ارتقت الى افاق تقنية جديدة. بل ان الجبل مرتبط بشيء لا بداية له ولا نهاية، وشيء اذ اصبح فتحا روحيا لا ينزع، فقد صار جزءا من طبيعة المرء، شيئا يحمله المرء في كل مكان ويضفي معنى جديدا على كل فعل وكل تجربة وكل صراع في الحياة اليومية.

وبهذه الطريقة، ووراء الرمز الطبيعي للجبل المذي تدركه الحواس مباشــرة، يمكننا الولوج الى رمزيته العقدية والتقليدية، ونعني بها المحتوى الاعمق لكل الاساطير القديمة المذكورة انفا التي يظهر فيها الجبل بوصــفه مقرا للطبائع الالهية، والمواد المخلدة، وقوى الملكية الشــمســية وفوق الطبيعية (على سبيل المثال، الجبل الشمسي المشار اليه في تقاليد الامبراطورية الرومانية المهلينة، والجبل بوصــفه مقر المجد المازدي)، والمركز الروحي (جبل ميرو والجبال الرمزية الاخرى المتصــورة بوصــفها اقطابا)، وهلم جرا. وفي واقع الامر، نرى في كل هذا شتى التصويرات والتشخيصات والاســقاطات لحالات الوعي المتعالية، ولليقظات والاستنارات الباطنية. ويقال ان هذه الاسقاطات حقيقية حينما لا تعود تمثل شيئا غامضا او صوفيا او خياليا، بل حينما تدرك وفقا لبداهة ونمطية نظام اسمى يرى في كل ما كان سابقا مالوفا ومعتادا امرا غير طبيعي.

ومن الممكن ان الاقدمين، الذين جهلوا تسلق الجبال او لم يعرفوا الا بعض تقنياته البدائية (وعرفوا الجبل بالتالي بوصفه كيانا لا ينال ولا ينتهك)، قد قيدوا تبعا لذلك لاختباره بوصفه رمزا وروحانية متعالية. وبالنظر الى ان الجبل اليوم قد فتح ماديا وان ثمة قمم قليلة لم يبلغها الانسان بعد، فمن المهم صون الغزو من الانحطاط وفقدان معناه الاسمى. ولذا، فمن الضروري ان تقدر الاجيال الناشئة تدريجيا الفعل على مستوى الطقس، وان تنجح ببطء في العثور مجددا على نقطة مرجع متعالية. فمن خلال هذه النقطة المرجعية تقود مآثر الجسارة والمخاطرة والغزو، وكذا انضباطات الجسد والحواس والارادة التي تمارس في قمم الجبال الثابتة والعظيمة والرمزية، الناس الى ادراك ان كل ما في الانسان هو وراء ذاته. وبهذه الطريقة ستجد هذه المآثر مسوغاتها في سياق الحركة الثورية الروحية التي تبزغ حاليا بين قومنا.

٤: عارف من جبال التبت

كان ميلاريبا ناسكا وشاعرا تبتيا فريدا عاش حوالى القرن الحادي عشر للميلاد. ويعزى إليه إحياء العقيدة الميتافيزيقية لبوذية الشمال، أو "الماهايانا"، في صورة تقليد جرى نقله شفهيا حتى يومنا هذا. وتعرف تعاليمه في هيئة أغنيات تتضمن أوصافا لبعض وقائع حياته. وأعتقد أن قرائي سيجدون من الممتع استكشاف هذه الصوفية باختصار، حيث تتشابك فيها الانطباعات الناشئة عن الجبال العالية، والصراع مع العناصر الطبيعية، والرموز المتنوعة، والعقائد، والإشارة إلى ظواهر غامضة من النوع الخارق للطبيعة تشابكا وثيقا. وسأقوم أولا بتلخيص الأجزاء السردية من قصائد ميلاريبا.

مضت ستة أشهر منذ أن اعتزل الناسك ميلاريبا في الجبال العالية بالقرب من المجلدات العظيمة، حيث حوصر مع قليل من القوت في عاصفة ثلجية عزلت قمم الجبال عن بقية العالم. وإذ اعتقد تلامذته أن ميلاريبا قد قضى نحبه،

قدموا القرابين الجنائزية المقررة للموتى. ومع بداية الربيع، ذهبوا للبحث عنه، وشقوا طريقا عبر الثلوج رغبة في استعادة جثمان معلمهم.

وإبان توقفهم في المجلدات، ظهر لهم نمر جليدي. فشرعوا في اقتفاء أثره عندما استحال فجأة، ويا لدهشتهم، إلى نمر مرقط. وعند مدخل "كهف الشياطين"، سمعوا صوتا ينشد أغنية عرفوا أنها لميلاريبا، فهرعوا على الفور إلى الداخل ليعانقوا معلمهم؛ لقد كان هو من أسقط صورا وهمية للنمر الجليدي والنمر المرقط عبر وهم بعيد المدى، بعد أن استشعر اقتراب تلامذته.

أخبرهم كيف أنه، خلال تأمله، ورغم عدم أكله شيئا يذكر، لم يشعر بالحاجة إلى الطعام؛ وأنه خلال أيام الأعياد، كانت الأرواح الهوائية للقمم تأتيه بجوهر القرابين التي يقدمها له أصدقاؤه؛ وأنه عندما بدأ تلامذته، ظنا منهم بموته، في تقديم القرابين، استحالت تلك القرابين بالنسبة إليه نوعا من القوت جعله يشعر بالشبع ولم يعد ينشد شيئا.

وبناء على طلب تلامذته، وافق ميلاريبا على تعليق ممارساته الزهدية في الجبال والهبوط إلى الهضبة، حيث احتشد جمع مبتهج عند سماع أنباء عودته سالما. وروى ميلاريبا، ردا على أسئلة الناس، قصة إقامته على قمة الجبل وكيف استطاع مغالبة العناصر الطبيعية، ودرجات الحرارة الجليدية، والرياح العاتية، قاهرا بذلك القوى غير المرئية ("الشياطين") المتخفية في هيئة ثلوج. ثم قدم تعاليمه.

أغنية الثلج

في نهاية عام النمر، وقبل أن يبدأ عام الأرنب، في اليوم السادس من "وا جال"، نمت في داخلي جذوة الزهد. إلى جبل "لاشي" الثلجي النائي جاء ميلاريبا، المعتكف الذي يتشبث بالعزلة. انعقد مجلس بين السماء والأرض؛ وأرسلت ريح تمزق الأديم. جرت الأنهار وتدفقت السيول؛ واجتاحت السحب السوداء الأرجاء من كل اتجاه. حُبست الشمس والقمر في الظلمة وثبتت المجموعات

النجمية الثماني والعشـــرون في مكانها، وثُبت درب التبانة وربطت الكواكب الثمانية بسلسلة حديدية. التحف الفضاء بالضـباب، وفي السـديم، سـقط الثلج لتسـعة أيام وليال. ثم انثال أكثر فأكثر لثمانية عشر يوما وليلة أخرى. سقط الثلج، كبيرا كأكياس الصوف، سقط مثل طيور تحلق في السماء، سـقط كأسـراب نحل دوارة. سـقطت الرقاقات صـغيرة كعجلة المغزل، سقطت ضئيلة كبذور الفا صولياء، سقطت كنفاش القطن. كان انهمار الثلج يفوق كل تقدير. غطى الثلج الجبل كله بل ولامس السماء، متساقطا عبر الاحراش ومثقلا كواهل الأشجار. في هذه النازلة الكبرى، بقيت في عزلة مطلقة. ا شتبك الثلج، والنفحة الشتوية، وثوبي القطني الرقيق في صـراع ضـد بعضـهم البعض فوق الجبل الابيض. والثلج، إذ سـقط علي، اسـتحال رذاذا. لقد قهرت الرياح العاتية، وأخضـعتها لسـكينة الصـمت. كان الثوب القطني الذي أرتديه كأنه شعلة متقدة. كان الصراع صراع حياة أو موت، كما يصـارع العمالقة وتتصـادم السيوف. أنا، اليوغي

المقتدر، كنت الظافر، وبذلك تجلت قوتي على الحرارة الحيوية ("تومو") والقناتين. بالمراقبة الدقيقة للعلل الأربع الناتجة عن التأمل والتمسك بالممارسة الباطنية، استحالت أنفاس "البرانا" الباردة والدافئة إلى جوهر. وهذا هو السبب في أن الريح العاتية قد روضت، والعاصفة، إذ أخضعت، فقدت قوتها. حتى جيش "الديفا" لم يستطع مباراتي. هذه المعركة، أنا، اليوغي، قد كسبتها. أنا ابن الأسد، ملك كل الوحوش، عشت دوما في الجبال الثلجية: فلا حاجة للقلق علي. إذا صدقتم ما يرويه هذا الرجل العجوز، فان "الدارما" ستنمو وتنتشر بعيدا.

نشيدُ الحبُور

استجابةً لمساءلةِ تلامذتي، هاكُم نشيدَ الجذلِ الذي يترنَّمُ به هذا الشَّيخ!

لقد اكتَنَفَ الثلجُ الهاطلُ مَنسَكي،

وجادَت عليَّ الآلهاتُ بالقُوتِ والمَدَد.

بمُراقبةِ عقلي، تتجلَّى الأشياءُ طُرّاً،
وبالقُعودِ في الموضع الوضيع، يُرتقَى إلى العرشِ المنيف.

أنا، ميلاريبا، يمَّمتُ شطرَ جبلِ "لاشي" الثلجي النائي،
لأحِلَّ وحيداً في "كهفِ الشياطين".
لستَّةِ أشهرٍ كوامِل، نمَت خِبراتُ التأمُّل،
وأنا الآنَ أكشِفُ اللثامَ عنها في هذا:
نشيدُ جواهرِ التجاربِ التأمُّليةِ الستّ:
إن خالطَته العوائقُ، فما هو بفضاء؛
وإن داخَلَهُ التَّعدادُ، فليست بنجوم.
لا يَصحُّ القولُ: "ذا جبلٌ"، إن كان يَميدُ ويرجُف.
ولا هو بمحيطٍ، إن كان يقبلُ الزيادةَ والنقصان.
ولا يُدعى سَبَّاحاً، مَن افتقرَ إلى جسرٍ للعبور.
وليس بقوسِ قزحٍ، إن طالَته يدُ اللَّمس.
تلك هي الأمثالُ الظاهرةُ الست.

حدودُ "المُعَيَّنِ" تُقَيِّدُ الفهم.
النُّعاسُ والشُّرودُ ليسا من التأمُّل في شيء.
القَبولُ والرفضُ ليسا من أفعالِ الإرادة.
وسَيْلُ الأفكارِ المتصلُ ليس "يوغا".
إن كان ثَمَّةَ مشرقٌ ومغرب، فليست بحكمة.
وإن كان ثَمَّةَ ميلادٌ وموت، فليس "بوذا".
تلك هي العِلَلُ الباطنةُ الست.

إيمانٌ عظيم، واعتصامٌ بـ"غورو" حكيمٍ صارم،
وانضباطٌ قويم، وعزلةٌ في المَنسَك،
ومُمارسةٌ دؤوبةٌ عَزُوم، وتأمُّل...
تلك هي السُبُلُ الستُ المُفضيَةُ إلى الانعتاق.
الحكمةُ الأصليةُ الفطريةُ هي فلكُ العُمقِ الأولي.
مُنَزَّهٌ عن الظاهرِ والباطنِ هو فلكُ الوعي؛
مُنَزَّهٌ عن الضياءِ والظلمةِ هو فلكُ البصيرة؛

حاضـرٌ في كلِّ مكان، محيطٌ بكلِّ شـيء، هو فلكُ "الدارما" (القانون)؛

مُنزَّهٌ عن التحوُّلِ والانتقالِ هو فلكُ "تيغ لي" (Tig Le)؛

مُنزَّهٌ عن الانقطاعِ هو فلكُ التجربة.

تلك هي ممالكُ الجوهرِ الستُ الراسخات.

أشـدو بأغنيةِ الجواهرِ السـتِّ هذه، حصـادَ تجاربي في تأمُّلِ الشتاءِ الفائت.

لوعةُ القلبِ التي تَحسَـبُ الواقعيَّ ما كانوجوداً مشـروطاً، قد قُهِرَت؛ وظلماتُ الوهمِ المتولدةُ عن الجهلِ قد انقشعت.

تفتحت اللوتس البيضاء للرؤية العقلية؛

وأُسرِج مشكاةُ وعي الذات الناصع؛ واستفاقت الحكمة.

أحقاّ استيقظت روحي؟

حين أرنو ببصـــري إلى الســـماء الزرقاء، يتبدى لي خواءُ الوجود جلياً،

ولا أخشى عقيدة "واقعية الأشياء".

وحين أنظر إلى الشـمس والقمر، تبزغُ الاسـتنارةُ في وعيي بزيٍّ متميز،

فلا أخشى بلادةَ الروح ولا خَدَرَها.

وحين أنظر إلى قمم الجبال، يُدركُ وعيي بجلاء موضـــوعَ التأمل الثابت،

فلا أخشى التقلباتِ الدائبةَ للنظريات المجردة.

وحين أنظر إلى النهر في الأسفل، تنبثقُ فكرةُ الاستمرارية في وعيي واضحة،

فلا أخشى صروفَ الدهر المباغتة.

حين أرى قوس قزح، أختبر خواءَ الظواهر في صميم كياني،

فلا أخشى ما يبقى، ولا ما يفنى.

وحين أرى صورة القمر منعكسة على الماء،

يتجلى لوعيي "التحرر الذاتي"، طليقاً من كل هم،
فلا أخشى الحماقةَ ولا العبث.

أغنيةُ جوهرِ الأشياء
العاصفة، والرعد، وسحب الجنوب.
حين تنشأ، فمن السماء منشؤها؛ وحين تضمحل، ففي السماء اضمحلالها.
قوس قزح، والضباب، والغيم.
حين تنشأ، فمن الهواء منشؤها؛ وحين تضمحل، ففي الهواء اضمحلالها.
جوهرُ الثمار والزروعِ كلِّها من الأرض؛
وحين تضمحل، ففي الأرض اضمحلالها.
الأنهار، والأمواج، وزبد البحر.
حين تنشأ، فمن المحيط منشؤها؛ وحين تضمحل، ففي المحيط اضمحلالها.

الأهواء، والصبابة، والجشع.

حين تنشأ، فمن العقل منشؤها؛ وحين تضمحل، ففي العقل اضمحلالها.

الحكمة، والاستنارة، والانعتاق.

حين تنشأ، فمن العقل منشؤها؛ وحين تضمحل، ففي العقل اضمحلالها.

الخلاصُ من الولادة الجديدة، غير المشروط، وما لا يوصف،

حين ينشأ، فمن "الكون" (Being) منشؤه؛ وحين يضمحل، ففي الكون اضمحلاله.

ذاك الذي يُحسب شيطاناً، حين ينشأ، فمن داخل الزاهد منشؤه؛

وحين يختفي، ففي الزاهد يختفي،

إذ ما هذه الأطياف إلا تلاعبٍ وهمي للجوهر الداخلي.

بـإدراك الطبيعـة الحقـة للعقـل، يمكن إدراك أن حـالَ الاستنارة لا يُقبل ولا يُدبر.

عند ما يفهم العقل، المخدوعُ بظواهر العالم الخارجي، تعاليمَ الظواهر حق الفهم،

يختبرُ أنْ لا فرق البتة بين الظواهر والخواء.

وحين تُقارن طبيعة العقل الحقة بطبيعة الأثير،

عندها يُفهم جوهر الحقيقة على وجهه القويم.

٥. العِرْق والجبل

وفقاً للمرتكز الرئيس لعقيدة العِرْق، فإن خصال العرق هي، في جوهرها، عوامل وراثية. تمارس البيئة تأثيرها، بيد أنها ليست عاملاً حاسماً، إذ لا يسعها بمفردها توليد تعديلات دائمة تُورَّث كتركات جديدة. ومع ذلك، تكتسب البيئة أهمية خاصة حيثما وُجدت أنماط تحوي عوامل وراثية متباينة جراء تمازج عرقي سابق. في هذه الأحوال، قد تعمل البيئة على نحو يشجع نماء بعض هذه العوامل على حساب غيرها، التي قد تُكبح أو تُختزل إلى حالة كمون. وعلى هذا الأساس، فإن البيئة عامل ينبغي النظر إليه بعين الاعتبار حيثما طُرحت مسألة "انتقاء السمات". فبيئة معينة قد تختبر تنوع الاستعدادات الموروثة وتقيس قوتها؛ وقد تحدث تمييزاً؛ بل وقد تعزل وتثبت نمطاً سائداً إذا ما قدمت الظروف ذاتها لفترة زمنية كافية.

إن الملاحظات العابرة آنفة الذكر يُراد لها أن تكون مقدمة عامة لبعض الاعتبارات التي أزمع طرحها. وتتعلق هذه

الاعتبارات بالمعنى الذي تحمله تجربة الجبل لرؤية فاعلة للعرق، أعني الرؤية التي تروم إضفاء مزيد من التوكيد، في الشعب الإيطالي، على خصال ومواهب النمط الآري-الروماني.

لقد قلت "تجربة الجبل" ولم أقل "الجبل" فحسب، لأنني لا أشير إلى القوم الذين يستوطنون المناطق الألبية. بل أروم في هذا السياق تناول تأثير الخبرة واعتياد الجبال على أولئك الذين لا ينتمون إلى هذه البيئة، والذين يمثل الجبل لهم فرصة للتمرد على الإيقاع الرتيب للحياة اليومية.

علاوة على ذلك، لا أنوي الكتابة عن الآثار الفسيولوجية والنفسية لتسلق الجبال، وجانبها النافع والمُجدد للقوى الذي بات من المعارف الشائعة. بل إنني أبتغي تركيز الضوء على جانب انتقاء السمات وتشكيل الشخصية.

أولاً، إن كل من يوافق على الرؤية السائدة التي مفادها أن الأصل الجذري للعرق الآري الغازي قد تمايز عن الشعوب الأخرى وأكد ذاته في خضم الأحداث والبيئة القاسية،

وتحديداً في نهاية العصر الجليدي، سيقر أيضاً بأنه إذا كانت ثمة بيئة طبيعية من شأنها أن تشجع على ظهور "هيئة باطنية" مماثلة، فهي البيئة الجبلية—لا سيما تلك المناطق التي توجد فيها الأنهار الجليدية العظيمة والقمم الشاهقة. في هذه الحالة، قد يتكشف استحضار إرث بدائي في ظل الظروف المواتية، دون فرض تأقلم عضوي مسبق على أولئك الذين، بعد ألفيات قضوها بعيداً عن موطن الأسلاف، حاولوا استخلاص تجارب إيجابية من خبرة طويلة في المناطق القطبية.

ثانياً، بحكم طبيعته البدائية، وعناصره، ونأيه عن العالم التافه لأفكار ومشاعر الإنسان الحديث المُدَّجن والعقلاني، فإن الجبل يدعو الناس أيضاً، بطريقة روحية، إلى الأوبة إلى أصولهم، إلى التحقق الداخلي لشيء يعكس البساطة، والعظمة، والقوة المحضة، ومناعة عالم القمم الجليدية المشرقة. إن حقيقة معرفة كل تقليد قديم تقريباً لرمزية الجبل—حيث تصورت التقاليد قمم الجبال مقعداً للقوى

الإلهية والأولمبية، أو للأبطال والبشر المتسامين—تؤكد القوة الاستحضارية التي نسبتُها للتو إلى الجبل. ومن الضروري التشديد على هذه النقطة: إن الحديث عن العودة إلى الأصول وإعادة بناء الأنماط البشرية، وأشكال الحضارة، وأساليب الأزمنة الغابرة، سيؤول دائماً إلى مجرد ترف فكري وحنين عقيم، ما لم يحقق المرء حساً مباشراً بما هو بدائي. والطبيعة وحدها هي التي يمكنها المساعدة في هذه المهمة. وأعني الطبيعة التي لم يعد فيها متسع لما هو جميل، أو رومانسي، أو "تصويري"؛ أعني عندما تكف الطبيعة عن الحديث إلى الإنسان؛ أعني الطبيعة التي قوامها العظمة والقوى المحضة. ولهذا، لن أتردد في القول إن من قهر الجبل، أي من تعلم تكييف نفسه مع معناه الجوهري، يمتلك بالفعل مفتاحاً لفهم الروح الأصلية وروح العالم الآري-الروماني في أكثر جوانبه صرامة، ونقاءً، وضخامة. ومفتاحٌ كهذا لا يُعثر عليه في الثقافة العادية ولا في التحصيل الأكاديمي.

والآن أود مناقشة أربعة عناصر للشكل. إن كل أولئك الجادين بشأن تسلق الجبال، الذين يتسلقون الحواف، والجدران، والصخور الناتئة، والممرات الجليدية والحواف الضيقة، يجسدون طريقة مشتركة للكينونة. وتشبه سماتها الرئيسة تلك السمات التي تمثلت نموذجياً في الأعراق الآرية-الرومانية والآرية-الشمالية، وهي تختلف جداً عن سمات نمط بشري "متوسطي" معين. وفي هذا كله، أميل إلى رؤية أثرٍ لانتقاء طبيعي، ويكاد يكون تجديداً، يحدث نتيجة لمهام واختبارات محددة، وكذلك لبيئة خاصة.

السمة الأولى هي شح الكلام والحد من التواصل اللفظي. إن الجبل يعلم الصمت؛ إنه يثبط الثرثرة الجوفاء، والكلمات التي لا طائل منها، والانفجارات العاطفية الفياضة التي لا مسوغ لها. إنه يعزز التبسيط وتوجيه انتباه المرء نحو الداخل. في البيئة الألبية، تكون الإيماءات والإشارات أبلغ من الخطب الطويلة. ويصدق هذا بوجه خاص عندما يكون المرء منشغلاً بالتسلق، أو إحداث ثقوب في وجه الجبل، أو عبور

الأخاديد، ففي هذه الظروف يتبنى المرء غريزياً أسلوباً عسكرياً وإيجازاً في التحذير، أو إصدار التعليمات، أو التأكيد. ويمكن مد هذا الأسلوب من التسلق ليشمل الحياة في الجبال بصفة عامة. صحيح أن المرء يصادف أحياناً انتكاسات، خاصة بين الشباب الذين لا يتحاشون الضوضاء والصخب عند إقامتهم في الملاجئ الجبلية. ومع ذلك، فإن هذه الانتكاسات لا تمس الجوهر، ولها قيمة وضع هذا الموقف في مقابل الموقف الموجود لدى المتسلقين الحقيقيين والأشخاص الأكثر تأهيلاً، الذين يمثل الجبل لهم أكثر بكثير من مجرد مغامرة متفرقة وعاطفة عابرة.

السمة الثانية للمتسلقين الجادين، والمرتبطة مباشرة بالأولى، هي الانضباط الداخلي: سيطرة تامة على ردود الفعل؛ وأسلوب الفعل المُتَرَمي، الناصع، والهادف؛ وجرأة ليست بالطيش ولا بالتسرع، بل هي موصولة بمعرفة حدود المرء ومكامن قوته، وبالشروط الدقيقة للمشكلات المراد حلها. وفيما يتعلق بهذه السمة، نجد سمة أخرى: السيطرة على مخيلة

المرء والقدرة على التحييد الفوري لأي اضطراب داخلي عقيم وضار. تشترك هذه العناصر كثيراً مع سمات الزهاد، لكنها توضع هنا موضع التنفيذ كافتراضات مسبقة لأي رحلة تسلق ذات شأن. إن التركيز الناصع، الملائم للغرض، هو سمة أخرى توقظها تجربة الجبل وتثبتها، حتى تتحول لدى الكثيرين إلى طريقة طبيعية للكينونة أو إلى نوع من العادة. فالذي يفكر، وهو يسير عبر حافة جليدية مفتوحة، في شيء غير موطئ قدمه التالي؛ أو الذي، أثناء التسلق، يسمح لنفسه بالتفكير في الخطر وفي الهاوية الفاغرة فاهها تحته، بدلاً من تثبيت ذهنه على الحل السريع والدقيق لمسائل الوزن، والتوازن، والمقبض الصحيح—إن شخصاً كهذا قلما يعود ثانية إلى الجبل، حتى وإن ظل يتوق للمغامرة. إن العودة إلى الجبل؛ ومواجهة المخاطر وعشقها؛ وإتقان التقنية الصحيحة—كل هذا يعني إضفاء شكل معين على كينونة المرء، وهو ما يؤثر في النهاية لدى بعض الناس على السلوك اليومي العادي. إن الواقعية الفاعلة—تلك الغريزة الناصعة

والمروضة تماماً، وذلك الأسلوب لروح تُبقي النفس وأي رد فعل لاعقلاني تحت سيطرة تامة، هي أيضاً السمات الرئيسة للأسلوب الآري-الشمالي والآري-الروماني. صحيح أن سمات مماثلة يمكن تنميتها أيضاً في رياضات أخرى، إلا أن تجربة الجبل تحتوي على عدد من العناصر التي تفضي إلى روحنتها، مما يقضي على خطر "الميكنة" الذي يصيب أولئك الذين تحولوا إلى حزمة من ردود الفعل المضبوطة جيداً.

ثالثاً، تمنح تجربة الجبل المرءَ القدرة على الفعل، وعلى الأداء دون متفرجين، وعلى إظهار بطولة تتنكب البلاغة الجوفاء والإيماءات التفخيمية. ومرة أخرى، البيئةُ ذاتها هي التي تجلب "تصفية الفعل" هذه، والتغلب على الغرور، والزهد الفاعل. وفي حين يتميز "النمط المتوسطي" بالحاجة إلى جمهور وبالميل إلى التصرف بمسلك مسرحي، فإن تجربة الجبل هي أحد أفضل الترياقات ضد هذا المكون المتوسطي الذي قد يتبقى في نفوسنا الإيطالية. إن من يمارسون تسلق الجبال

حقاً يتعلمون فرحاً نقيضاً لفرح النمط المتوسطي، ألا وهو فرح الانفراد، وفرح أن يُترك المرء لنفسه وسط لا تغير الأشياء، وحيداً مع فعله وتأمله. وحقيقة أن الناس في الغالبية العظمى من مآثر الألب يكونون مربوطين ببعضهم البعض بحبال لا تناقض النقطة آنفة الذكر، لأنه لا يوجد متسلق جاد لم يواجه الجبل وحيداً في مرحلة ما. أما الأشخاص الآخرون المربوطون معه فلا يمثلون جمهوراً قط، بل هم عناصر لوحدة واحدة تؤدي مهام مختلفة في سياق فعل مشترك. والكل يعلم أن الشخص في المجموعة المربوطة يُتوقع منه أن يفعل أكثر بكثير مما لو كان وحده، بالنظر إلى العواقب التي قد يجرها فعل طائش أو لحظة ضعف على الآخرين.

يقودني هذا إلى النظر في سمة رابعة، أشير إليها كطريقة خاصة للكينونة والفعل سوياً. إن "الرفقة" (Camaraderie)، في هذا السياق، تعبير عام جداً. فالاتصال هنا أكثر فردية وشخصية. تلعب العاطفة والمودة أدواراً ثانوية مقارنة بحالات

الرفقة العامة، ولكن مع أثر أشد كثافة. وبعبارة أخرى، هو أن تكون وحيداً ومع أناس آخرين في آن واحد—اتصال يحدث جوهرياً من خلال العمل. إن القيادة وتبيان الطريق مجرد مثال للمهام التي يجب أن تُنجز دائماً من خلال القوة. وربما وحدها بعض أشكال الرفقة، التي صُهرت في أتون الحرب في ساحات الوغى، قد تجلب، كتجربة الجبل، هذا الحس الخاص بالتضامن الفاعل، الذي يحفظ مسافة بين الناس ويفترض مع ذلك التناغم التام لقواهم بسبب التقييم الدقيق لإمكانات كل عضو والثقة فيها.

هذه فحولة مبرأة من الرياء وعون متبادل بلا تردد، بين أناس يقفون على المستوى ذاته؛ وهي قائمة على هدف مشترك ومختار بحرية.

وهكذا، فإن هذا العنصر الأخير، عند مقارنته بما سبق، يذكرنا بنوع الجماعة الذي كان من أكثر العناصر تميزاً في الأعراق الآرية القديمة والشعب الآري-روماني؛ ولم يكن

لنوع الجماعة هذا أدنى صلة بالاشتراكية. لم يكن أساسه كياناً جماعياً ولا فردانية، بل "الشـــخصـــية". كان قانونه العمل؛ وفيه كانت علاقات رجال حقيقيين، يشـــد أزرها الثقة، والولاء، والصـــدق، ناهيك عن الكرامة المشـــتركة للانتماء للعرق ذاته. لم تكن التبعية تذل الناس في هذا النوع من المجتمع، بســـبب الرؤية الدقيقة للكل وبســـبب الرؤية التي يتقاسمها كل فرد.

تلك هي العناصر الرئيسة التي يعتز بها أولئك الذين يأخذون تجربة الجبل على محمل الجد، وذلك عبر الانتقاء الطبيعي للبيئة واختبار العمل. هؤلاء الناس، وبدرجة كبيرة من الاطراد، يميلون إلى تقويم أو تحييد ميول وصـــفات أخرى يتم التأكيد عليها في حياة الســـهول وفي المدن الكبرى. لا شـــيء يُخلق من العدم؛ لذا، لا تنطبق الاعتبارات الحالية على الإنســـان الحديث المُهجَّن تماماً الذي اختُزل إلى حيوان عامل ورياضـــي. بل تنطبق هذه الاعتبارات بدلاً من ذلك

على أولئك الذين لا يزال حس العرق لديهم (العرق بمعنى روحي، أسمى) يعني شيئاً، بل ويمثل نقطة الانطلاق الرئيسة لإرادة موجهة صوب الانعتاق واليقظة. في هؤلاء الناس، يوقظ الوسط الجبلي إرثاً بدائياً وربما يسهم في الظهور التدريجي لحس متعالٍ بالحرية—وهو ما لا يعني الهروب، بل هو مبدأ للقوة المحضة. يجد حس الحرية هذا تعبيره الأكمل داخل ذات المرء المحدودة، في التركيز، وفي الفعل المتروي، وفي السيادة الناصعة والتامة على الجزء اللاعقلاني من الكائن البشري، وأخيراً، في الاستعداد للتحول بحرية إلى عنصر من عناصر العمل الصلب، حيث تتموضع الغاية فوق الجميع وفوق كل شيء.

٦. الجبل، والرياضة، والتأمل

في مطبوعة حديثة لنادي الألب الإيطالي، وقعتُ على سجال. وبعيداً عن الرغبة في إذكاء هذا النزاع، أعتزم إبداء بعض الملاحظات العامة التي ستكون بمثابة نقطة مرجعية لقرائي.

يدور النزاع حول معنى تسلق الجبال الحقيقي. لقد اتخذ كارلو أنغويسولا ديميت موقفاً ضد المنحى المفرط في التقنية للتسلق، واصفاً إياه كما يلي:

"لا يمكن للمتسلق الحقيقي أن يكون شخصاً لا يحب ولا يفهم ولا يسعى إلا للدرجة الخامسة أو السادسة (من الصعوبة). المتسلق هو من يحمل الحبال، والمسامير، والمشابك، والأحذية، وحلقات التسلق، وكيس النوم، والكثير من المعدات أثناء رحلاته. المتسلق هو من بات مراراً في العراء على الجدران، معلقاً بالمسامير، ونام في الخلاء تحت المطر أو أثناء العاصفة، منتظراً بزوغ الفجر."

يشجب أنغويسولا طغيان هذا النهج التقني بشكل متزايد في الدوريات المكرسة لتسلق الجبال، حتى باتت الأمور الوحيدة ذات الأهمية هذه الأيام هي درجات الصعوبة أو تلك المدرسة في تسلق الجبال. علاوة على ذلك، يشكو من ملاحظة موقف متعاظم من التكبر لدى الشباب، الذين يستعرضون سترات ملونة، والغليون في أفواههم، وشارات كبيرة من مدارس تزلج أو تسلق مختلفة، كل ذلك بينما يتباهون بالمصطلحات التقنية.

يقر أنغويسولا قطعاً بـ "فائدة بعض مفاهيم التسلق"، لكنه يزعم أن ضحية المبالغة في التركيز على التقنية هو الجانب النوعي لتسلق الجبال. والأسوأ من ذلك، أن طابعه العفوي، والأصيل، والصادق يتعرض للاختناق. والنتيجة هي تضاؤل التأمل والاتصال المباشر بأحد أكثر أشكال الطبيعة عظمة. ويبدو أن الهوس الأمريكي بالأرقام القياسية قد غدا هاجساً مهيمناً. يبدو أن المتسلق الحقيقي هو من يسخر من أولئك الذين يحبون الجبل في جميع أشكاله، سواء

كانت قمم شاهقة، مثل جبل سيرفينو أو جبل لافاريدو، أو الهضاب. إن عشاق الجبل الحقيقيين رغم كونهم متسلقين متمرسين، ما زالوا يمنحون الأولوية للاهتمام التأملي وللدافع لإنشـــاء اتصـــال مع عالم يســـاعد المرء على نســـيان الحياة الميكانيكية والكئيبة للمدن الحديثة.

قُوبل أنغويســـولا بالرفض من قبل ب. ماريمونتي على صـفحات المراجعة ذاتها. زعم ماريمونتي أن حجة كهذه عفا عليها الزمن وأن الشـــيء الوحيد الذي يهم هو "ما هو إنجاز التســـلق العظيم، وبأي طريقة يتم تنفيذه". ومضـــى يقتبس كلمات إميليو كوميتشي:

"لكي نشـــعر حقاً بقوة الجبل، من الضـــروري مواجهة جدار من الدرجة الخامسة أو السادسة من الصعوبة. أولئك الذين لم يجربوا ذلك من قبل لا يمكنهم الحكم على الآخرين الذين فعلوا. نحن لا نذهب إلى الجبل لمجرد ممارســـة شـــكل تأملي من التســـلق... هذا لا يحدث إلا أثناء أيام الراحة، عندما نحلم، في تأمل، بإنجاز جميل وصعب."

وفقاً لماريمونتي، تميز كلمات كوميتشي هذه الشكل الأكثر اكتمالاً لتسلق الجبال، وأضاف: "ليس كل من يقصد الجبل يمتلك الصفات اللازمة لفهمه". في رأيه، الأشخاص الأقرب لفهم الجبل هم أولئك الذين "يحضرون بنفع مدارس ودورات تسلق الجبال".

وهكذا، يبدو أن ثمة تضارباً في التفسيرات. لتوضيح الأمور، أود أن أقر وأشجب، مع ماريمونتي، وجود أدبيات ذات صلة "تمثل غالباً شططاً خطابياً بدلاً من التعبير عن مشاعر صادقة". إن الجبل كمكان مثالي لاستدرار مشاعر عذبة وشاعرية، ومكان يبهج الناس بغروب شمس جميل وليالٍ مقمرة، ينتمي إلى جيل عفا عليه الزمن أفسدته العاطفية البرجوازية والرومانسية. يبدو لي الجبل ذاته أفضل ترياق لمثل هذه الانحرافات. ففي قلة من تجلياتها تمنحنا الطبيعة الإحساس بما هو، في عظمته، ونقائه، وقوته، وطبيعته البدائية، أسمى بكثير من الحيوات التافهة والغنائية المصطنعة للناس العاديين. في نظري، إن تطهيراً كهذا (Catharsis)،

وإزالة للأنا من العالم الضحل للذاتية المحضة وملحقاتها الأدبية والنفسية، يجب أن يكون أول أثر صحي مستمد من ممارسة تسلق الجبال الحقيقي، والسبب أيضاً الذي يجعل التسلق في جوهره جديراً بأن يُعتبر من قبل أفضل العناصر شيئاً أكثر من مجرد رياضة.

أهي مسألة تأمل؟ دعوني أوضح. لهذه الكلمة معانٍ مختلفة. المعنى الأكثر تداولاً هو الأكثر تعرضاً للابتذال. فوفقاً له، يعني التأمل تحليقات الخيال والمكث السلبي في الانطباعات وفي الأصداء الداخلية للمناظر الخلابة. في الأصل، كان التأمل يشير إلى الزهد ويعني شيئاً آخر تماماً: كان يمثل مجالاً أسمى من "الحياة النشطة" (وفي بعض الحالات يتوج بها)، يتميز بتجاوز الحس العادي والفردي للذات. والمصطلح اليوناني المقابل، "ثيوريا" (theoria)، يعني تحققاً داخلياً شاملاً أو تماهياً: وعي يعيش مباشرة في موضوعه. عندما نتحدث عن التطهير، أو عن التنقية كتجاوز لما هو ذاتي، وعاطفي،

وبرجوازي بفضـــل تجربة الجبل، يمكننا الإشـــارة إلى هذا المعنى الأقدم والأكثر صرامة للبعد التأملي.

عند هذه النقطة، يجدر بنا أن نتسـاءل، من بين كل أولئك الذين يقصـــدون الجبل، كم منهم يمتلك الصـــفات اللازمة لفهم، أو بالأحرى، لاســـتقبال القوة المحولة لتجربة الجبل؟ علاوة على ذلك، يجدر بنا التســـاؤل عما إذا كان الأقرب إليها هم أولئك الذين يركزون على الاستعدادات التقنية وعلى حب الجهد والمخاطرة، محتقرين المشـاعر التأملية (التي، بناءً على الكلمات المقتبسـة، ترقى إلى "الحلم بفتحٍ جميل وصـعب أثناء أوقات الراحة"). يبدو لي أن المنظور الصـــحيح يقع فوق كلا النقيضين.

أعتقد أن التأمل والعمل في الجبال يجب أن يكونا عنصرين لا ينفصـلان عن كلٍ عضـوي، يضـيعان خارجه معناهما المحدد والأسـمى فوراً. لكي ندرك ذلك، لنأخذ المصـطلحين منفصلين ولنصل بذلك إلى استنتاجات عبثية. الحد الأقصى لتأمل بلا عمل يمكن تحقيقه على متن طائرة. بالجلوس المريح

في الدرجة الأولى على خط البندقية-ميونخ أو البندقية-فيينا، قد يستمتع المرء بمنظر رائع وشاسع للألب والسماء (خاصة في الشتاء). سيكون هذا المنظر أجمل بكثير من ذلك المتاح للتأملات (بالمعنى الضيق للكلمة) التي يمكن تجربتها من أعلى القمم، والتي تُتسلق بكثير من الجهد والتركيز.

أما فيما يتعلق بالعمل دون تأمل، ففكروا في تلك الأعمال البهلوانية التي تؤدى على حبل معلق بين ناطحتي سحاب، أو على أرجوحة، حيث يعتمد كل شيء على التنفيذ الدقيق والخالي من العيوب لقفزة. أتساءل عما إذا كانت مدارس تسلق الجبال تملك حقاً المزيد لتقدمه في مسألة الانضباط في مواجهة الخطر، والسيطرة على ردود الفعل، والتقنية. من الواضح إذن، أن للأمرين قيمهما النسبية الخاصة: تسلق الجبال شأن مهم وجاد—وتربوي بمعنى أسمى وليس فقط بمعنى حديث ومنحط—فقط عندما ينطوي على عمل خاص يستمد معناه من التأمل وعندما يتضمن تأملاً خاصاً يستمد معناه من العمل.

لا يكاد يُنازع في أن الطابع التقني لتسلق الجبال الحديث (الذي غالباً ما يقوم على السعي وراء أرقام قياسية جديدة، وعلى زيادة الصعوبات، وعلى الجدار الذي لم تتم محاولته من قبل، حتى عندما يكون من الممكن الوصول إلى القمة عبر طرق أخرى)، مع صفته الميكانيكية الحتمية، يمثل غالباً نكوصاً فيما يتعلق بالنهج الشمولي المذكور آنفاً. إن الدرس الروحي الذي يقدمه الجبل لأولئك الذين يتسلقون، وقد نودوا واختيروا منه، لا يمكن لأي مدرسة من الدرجة الخامسة أو السادسة تقديمه. وبصراحة تامة، يؤدي التكرار والخبرة حتماً إلى تبلد في الحساسية—على الأقل، هذا ما علمتني إياه تجربتي الشخصية.

ما يتعلمه المرء من القمم والأنهار الجليدية بالسفر وحيداً، مع حد أدنى من المعرفة بالتقنية، يصبح تجربة أقل تعليماً بعد تأسيس روتين، وبعد تعلم تقنيات خطرة وتدريب العقل على التركيز على الحل الأفضل للمشكلة التقنية التالية التي تقدمها الخطوة التالية في الجليد والمقبض التالي على

الصخر. هذه طريقة مفيدة جداً لتدريب النفس بطريقة رياضية ولتربية الجسد والأعصاب، لكنها تؤدي حتماً إلى انقراض التجربة الروحية للجبل وتقلل أيضاً من فرص التطهير التي قد تكون متضمنة فيها. دعونا لا نخلط الأمور بالحديث عن الجبل كـ "مدرسة عظيمة للشجاعة، مدرسة لرجال الجبال المتسلقين المتخصصين في المآثر العظيمة". هذه المآثر تخصصات: أشكال لها بالطبع قيمة عالية، وإن كان في مجالاتها المحدودة فقط. في هذا السياق يظهر الجبل مجرد درجة (س) من الصعوبة، يجب التغلب عليها عبر وسائل ملائمة فيما يتعلق بشكل خاص من العمل الموجه نحو هدف (ص)، تماماً كعمل عسكري. هذا السياق المحدود جداً لا يفسح مجالاً لاعتبارات ذات رتبة عليا.

إنها حقيقة أيضاً أنه في الأجيال الحديثة توجد أعراض واضحة لتزايد المادية والميكنة في تسلق الجبال، والتي—خاصة فيما يتعلق بهوس الأرقام القياسية والسعي وراء الصعوبة لذاتها—متأثرة نوعاً ما بالعقلية الأمريكية وبهوسها التافه

بالرياضـــة. خطر آخر—تســببه عوامل أخرى—هو ظاهرة "الجماهير"، التي تغزو الجبال، والتي تجلب حتماً صبغة سوقية وتسـبب فقدان الجودة الروحية، ومســتوى وقيمة التجربة. أخيراً، هناك تكبر خاص، يمثله أولئك الذين يتصـرفون مثل "ترينكرز" (Trenkers) جدد [نســبة إلى لويس ترينكر، ممثل ومخرج أفلام جبال]، بمزيج من البساطة الزائفة والتباهي.

وهكذا في الجبال، لا سيما خلال موسمي الشتاء والصيف، لم يعد هناك أي متسع. سيكون حظاً عظيماً إذا تمكن أفضل المتســلقين من التغلب على القيود المذكورة آنفاً وأن يجدوا مجدداً في الجبال والقمم سـبل تجربة صحية حقاً، ونوعاً من النسك الصامت والتحرر الداخلي.

٧. الصعود والهبوط

ليس ثمة انقلاب ذو شأن في عالم الثقافة، والظواهر الاجتماعية، وبشكل عام، في الحساسية الجماعية، لا يكون قادراً على حمل معنى رمزي وعلى الإشارة إلى نظام من الأشياء يفلت عادة من المراقب السطحي.

إن عالم الرياضة في هذا الصدد بعيد عن تمثيل استثناء. علاوة على ذلك، يمكننا أن نضيف أن ظاهرة النمو والأهمية التي حظيت بها الرياضة في الحياة الغربية المعاصرة هي المؤشر (barometric index) للتحول، من جانب الروح الغربية، نحو رؤية للعالم تختلف جداً عن رؤية القرن التاسع عشر البرجوازي والفكري السابق. من نافلة القول، عند هذه النقطة، التأكيد على العلاقة بين هذا الانقلاب والتيارات السياسية الجديدة الموجهة نحو العمل.

ولكن حتى في مجال الرياضات المتنوعة، يجب إجراء اعتبارات مماثلة. في هذا السياق، أود حصرها في موضوع محدد، ألا وهو معنى الشعبية الفورية والعامة التي حظي بها

التزلج، خاصة بالمقارنة مع معنى شكل آخر مشابه من الرياضة، ألا وهو تسلق الجبال.

لتفادي سوء الفهم، يجب أن أحدد المستوى الذي تنطبق عليه أفكاري. بادئ ذي بدء، أود أن أوضح تماماً أنه لم يكن لدي، ولن يكون لدي أبداً، أي شيء ضد القيمة العملية للتزلج. سأعترف بكل سرور بكل ما يمكن اكتسابه من هذه الرياضة من حيث الصحة، والشجاعة، وتنشيط الجسد والعقل، وأثرها المنعش على شبابنا، الذين تخنقهم وتقمعهم الحياة الحضرية الحديثة. فليكن هذا واضحاً من البداية؛ لذلك، ما سأقوله لاحقاً لا ينبغي بأي حال أن يحمل قرائي على الاعتقاد بأنني أنكر قيمة عملية كهذه للتزلج كرياضة. أود أن أضيف أيضاً أنني أمارس التزلج بنفسي وكذلك تسلق الجبال—كهاوٍ محض طبعاً—دون أن أتأثر بالمعنى الرمزي السلبي، الكاشف جداً لعصرنا، الذي باتت هذه الرياضة تتخذه.

لقد حظي التزلج بشـــعبية متزايدة بســـرعة بالنظر إلى أنه، كرياضـة، لم يمر عليه ستون عاماً. عُقدت أول منافسـة تزلج عام ١٨٧٠ في كريســـتيانيا، حيث هزم قرويو تيليمارك خصـومهم باسـتخدام تقنية خاصـة، مسـببين دهشـة عالمية. بطبيعة الحال، كانت الزلاجات معروفة سابقاً في دول شمال أوروبا كوســـائل للســـفر عبر المناطق المغطاة بالثلوج؛ فكر الناس فيها كأدوات طبيعية ومفيدة، تماماً كقارب يُستخدم لعبور المياه. ومع ذلك، فإن التزلج كرياضـــة توقظ شـــغفاً خاصـاً وتولد متعة معينة لم يكتسـب شـعبية كبيرة بين الأمم الأوروبية العظيمة إلا في أوقات حديثة جداً. في أعقاب الحرب العالمية الأولى فاز بقلوب الجيل الأصـــغر. إن نجاح التزلج الســـريع، وجـاذبيتـه العـالميـة، والاهتمـام الحقيقي والحماس الذي يبعثه في كلا الجنسـين هي أمور مميزة لدرجة أنه سيكون من السطحية أن نرى فيها شيئاً عرضياً فحسب. بل هو شـيء ينبغي تفسـيره على أنه ذلك الذي يمثل الروح المعاصرة بدقة.

لذا، ينبغي أن نتساءل: ما الذي يشكل جوهر التزلج؟ ما هي نواته، النقطة التي تدور حولها جوانبه الأخرى؟ الجواب سهل: إنه الهبوط (Descent).

تماماً كما في التسلق الأولي، العنصر الأساسي ومركز الاهتمام هو الصعود، ففي التزلج يقابل هذا الهبوط. الدافع المهيمن في تسلق الجبال هو الغزو. بمجرد الوصول إلى القمة وبلوغ النقطة التي لا يمكن بعدها الذهاب أبعد، تنتهي المرحلة الأكثر إثارة للاهتمام لمتسلق الجليد أو الصخر. في التزلج، العكس هو الصحيح: الغرض من كل صعود هو الهبوط. ساعات من الجهد، ضرورية لبلوغ ارتفاع معين، تُنفق فقط من أجل التمكن من الانزلاق إلى أسفل التل. وهكذا، في المنتجعات الشتوية الأكثر تطوراً وحداثة، تُحل المشكلة لصالح المصلحة الحقيقية للمتزلجين من خلال بناء كابلات (تلفريك) تحملهم بلا جهد إلى القمة؛ بعد النزول يكونون مستعدين للصعود مجدداً، لعدد من المرات كما يشاؤون. تماماً

كما يتميز التسلق بنشوة الصعود، وبالمثل كغزو، يتميز التزلج بنشوة الهبوط، وبالسرعة، وحتى بالسقطات المحتملة.

هذه النقطة الأخيرة ليست بلا صلة. تختلف العلاقة بين الذات وجسد المرء اختلافاً كبيراً بين التسلق والتزلج. في التسلق نجد حساً مباشراً بجسد المرء كله. تؤكد الأشكال على التوازن، والاندفاع، والجهد، مما يفترض سيادة على الجسد—التحويل الناصع والمحسوب لكل وزنه استجابة لكل تحدٍ يقدمه الصعود، والمقبض، وموثوقية الخطوة المنحوتة في الجليد. في التزلج القصة مختلفة: علاقة الذات والجسد، المتصل بالزلاجات والموضوع تحت رحمة قوى الجاذبية، يمكن مقارنتها حقاً بالعلاقة بين شخص يقود سيارة والسيارة نفسها، بمجرد تحركها بأقصى سرعة. بمجرد أن يبدأ المتزلج سباقه إلى أسفل التل، لا يوجد سوى شيء واحد يمكنه فعله: توجيه نفسه، باستخدام حركات دقيقة، بتنظيم السرعة والاتجاه، وبتطوير سيادة على تلك المنعكسات التي تسيطر على الهبوط. هذا مثل حالة سائق يستمتع بالقيادة بأقصى

سرعة في طريق مزدحم بالناس وسيارات أخرى، دون إبطاء، ولكن بالتصرف بردود فعل سريعة لتجنب عقبات أو أشخاص مختلفين، لاعباً معهم تقريباً، ثم منتقلاً إلى عقبات أخرى.

أما فيما يتعلق بالجانب الداخلي للتزلج، أي فيما يتعلق بما عليه أن يقدمه للروح، فمن الضروري تذكر انطباع المرء عند وضع الزلاجات للمرة الأولى: لدى المرء انطباع بأن الأرض تنزلق من تحت قدميه، أو بالسقوط. يطفو انطباع كهذا مجدداً في أشكال أكثر صعوبة من هذه الرياضة، مثل سباق الانحدار والقفز التزلجي. على هذا الأساس لا أعتقد أنني مخطئ في القول إن أعمق معنى للتزلج يكمن في تحويل الخوف الغريزي من السقوط، أو غريزة التوقف أو الكبح—التي تصاحب كل سقوط—إلى إحساس بالبهجة، بالمتعة، مما يجعل المرء يرغب في الذهاب أسرع واللعب بالسرعة. بقدر ما يبدو الأمر متناقضاً، يمكن تعريف التزلج بأنه تقنية، ولعبة، واستمتاع بالسقوط. نجد في التزلج شكلاً

من الجرأة، من الشـــجاعة (التي لا ينبغي ازدراؤها لجميع الأغراض العملية)، ومع ذلك فهو شـــكل خاص يختلف تماماً عن جرأة متسـلق الجبال ويرتبط بالمثل بمعانٍ نقيضـة: إنه شكل حديث جوهرياً من الجرأة.

بمصـطلح السـقوط، نصـف المعنى الرمزي للتزلج والسـبب العميق لشعبيته المتنامية. من بين أصناف الرياضة العديدة، يجـب قطعـاً عـد التزلج من بين تلـك التي تعكس القيم الكلاسـيكية بأقل قدر. لهذا السـبب، بينما تصـور التقاليد القديمة لجميع الشـــعوب رمزياً الجبل كهدف للصـــعود وللتجليات (هذا رغم الجهل التام تقريباً بتقنيات التسـلق)، لا توجد إشـــارة في هذه التقاليد للتزلج. الحقيقة هي أنه في التزلج، تجد الروح الحديثة نفســها جوهرياً في وطنها؛ هذه الروح الحديثة منتشـية بالسـرعة، بالتغير المسـتمر، بالتسـارع. حتى وقت قريب كان هذا الانتشاء يُحتفى به كروح التقدم، رغم حقيقة أنه، في العديد من النواحي، ليس سـوى انهيار وسقوط (Falling down). هذه الحركة المبهجة، المقرونة بشعور

دماغي بالسيطرة على اتجاه هذه القوى المقذوفة والتي لم تعد مروضــة حقاً، هي نموذجية للعالم الحديث، الذي تحقق فيه الذات أشـد وعي ذاتي لها. كما لو كان عبر انعكاس، أعتقد أن قيماً مماثلة لتلك الخاصــة بالتســلق تظهر في التزلج وتميزه فيما يتعلق بالتســلق، كالترجمة الفيزيائية لنقيض الصــعود، والارتقاء بالنفس، وقهر قوى الجاذبية.

دعوني أكرر أنني أمارس التزلج بنفســي، رغم أنني لســت منزعجاً أو مشــتتاً بهذه الأفكار. لا ينبغي للمرء أن يتجنب أي تجربة. ما يهم هو الحفاظ على الانفتاح تجاه جميع التجارب وأن يكون واعياً دائماً لئلا تحاول العناصر الجسدية والعاطفية ممارسة تأثير إغوائي على المجالات العليا.

الجزء الثاني: (التجارب)

٩.الجدار الشمالي لليسكام الشرقي

أعتقد أن قرائي سيجدون اهتماماً في التعرف على تسلقي لليسكام الشرقي (٤٥٣٢ متراً) عبر الجدار الشمالي الشرقي، في ٢٩ أغسطس ١٩٣٠. لم تكن تلك المرة الأولى التي تتم فيها محاولة هذا التسلق؛ ففي عام ١٨٩٠ تتبعت المجموعة المربوطة المكونة من نورمان نيرودا، وكلوكر، ورا ينستادلر المسار الصخري للجبل لمعظم الصعود. التسلق الثاني، والأول الذي حاول القيام به إيطاليون، أنجزه الدكتور كارلو فورتينا مع الدليل الجبلي أوغوستو ويلف من غريسوني. في عام ١٩٢٦ تسلقه ألمانيان دون دليل؛ وفي عام ١٩٢٧ تسلقه الألماني و. كيل مع دليلين. في ٢٦ أغسطس ١٩٢٩، قامت المتسلقة الإيطالية الشجاعة نيني بيتراسانتا، مع الدليل الجبلي كيارا من ألانيا، بأول تسلق نسائي بالكامل، محققة بذلك رقماً قياسياً جديداً لتسلق الجبال الإيطالي. وكان شابان من تورينو، إيمانويل أندريس ولويجي

بون، خلال شهر أغسطس ذاته، أول إيطاليين يتسلقانه دون دليل.

ومع ذلك، وبالنظر إلى أهمية هذا الجبل، وجلال جانبه الشمالي، والظروف المحظوظة بشكل لافت التي جرى فيها تسلقنا، والمسار المستقيم الذي اتبعناه، أرغب في نشر مذكراتي.

رفيقي هو يوجينيو ديفيد، من غريسوني، أحد أفضل أدلاء الجبال الشباب من فال داوستا. طويل القامة، رشيق، هادئ، ذو ثبات يعادل شجاعته، هو رسام وموسيقي وكان ذات مرة عضواً في قوات الجبال النخبوية (Alpini). إنه خير رفيق لشخص مثلي، يحب تسلق الجبل وحيداً أو مع أقل عدد ممكن من الناس، مواجهاً الجبل بخطى سريعة، بدلاً من قهره بخطى بطيئة وثابتة.

نصبنا مخيم القاعدة في كابانا غنيفيتي (٣٦٤٧ متراً). كانت الليلة عاصفة، تميزت بومضات برق متكررة وهبات من البرد والثلج. رغم أن الجميع حاول تثبيطنا، قبيل الفجر

بقليل، ملوحين بالفوانيس، هبطنا إلى النهر الجليدي. متجاهلين الصعوبات

عزمنا على تحقيق هدفنا وإحراز أكبر تقدم ممكن. في الضوء المبكر، تبدو السحب وكأنها تختثر في الوديان بالأسفل، كاشفة عن بياض ناصع لثلج جديد وسماء صافية ذات لون أزرق بحري. تبدو القمم مهيبة، مشكلة جوقة جماعية؛ وخلفها يكمن هدفنا المنشود، جبل ليسكام. قبل أن نصل إلى جبل ليسيوش، تتسبب عودة هبات الرياح الجليدية والسحب، التي تنشأ من الوديان الجنوبية وتغلف القمم، في توقفنا والتفكير في خطوتنا التالية. بالنظر إلى الظروف، يعلن ديفيد أن محاولة المضي قدماً عمل محفوف بالمخاطر. في البداية لا أحاول إقناعه بالمضي؛ وبما أن الانتظار قد أشعرنا بالبرد، أقترح عليه، كحل اضطراري (pis aller)، عبور جبلَي ليسكام باستخدام المسار العادي الذي مشيت عليه قبل يومين فقط. بحلول الوقت الذي نصل فيه إلى المنحدرات الأولى ينقشع الأفق مجدداً. يجد رفيقي عزمه الأصلي ثانية،

عقب دعابتي حول "مشية فتيات الكشافة" التي نحن بصدد بدئها. بعد أن أجاب، "حسناً، فلننطلق!"، انطلقنا بخطى راكضة نحو جبل ليسيوش وذهبنا أبعد من ذلك، منتهين عند سفح جبل غرينزغليتشر، منتشين تقريباً بفكرة المغامرة التي ألزمنا أنفسنا بها.

إنها السادسة صباحاً تماماً عندما نصل إلى أسفل وجه الجبل. لم يعد هناك سحب أو رياح، لا يوجد سوى ضوء ساطع ينتشر ببطء فوق السماء والثلج. فوق رؤوسنا تبدو المنحدرات الجليدية عديمة الرحمة، مسببة للدوار، ومربكة. في كل مكان حولنا، قمم جبلية.

أسفل الجدار الجبلي محاط بصدع عميق دائم؛ وحوافه اليوم غادرة نوعاً ما بسبب تساقط الثلوج الحديث جداً. نلتف حوله بحذر حتى نجد مكاناً للعبور. ينزل ديفيد إلى الصدع، واثقاً في منطقة مغطاة بالثلج لتحمل وزنه. يتسلق منحدر الصدع ويصل إلى الجانب الآخر بسرعة، ودون تردد، أتبع خطاه. الآن حان الوقت لبدء تسلقنا.

منذ البداية الانحدار هائل: لا يقل عن ستين درجة. الأرض، المغطاة بثلج جديد ملتصق يمكن للمشبك وفأس الجليد الذي نتكئ عليه للدعم أن يمسكا به بسهولة، تتيح لنا أملاً قصير الأمد. بعد قليل يثبطنا أن نعلم أن الأرض مغطاة فقط بطبقة رقيقة من الثلج غير كافية لحمل وزننا ولكنها سميكة بما يكفي لمنع نعالنا المسننة من الوصول إلى الجليد تحته وبالتالي من الحصول على ممسك ثابت. أبعد من ذلك نواجِه جليداً محضاً مع بضع مناطق مغطاة بثلج تجمد خلال الليلة السابقة.

نحن في منتصف مغامرتنا. نمضي قدماً. يصبح الحبل عديم الفائدة. من غير المجدي أيضاً التفكير في ممسكات متبادلة. لا يمكننا غرز فأس الجليد في الأرض، ولا يمكننا الاستناد عليه، نظراً لأن ثلمات الدرجات وثبات الممسكات الطبيعية غير كافية لحمل حتى الوزن الأقل لـــ "المكون العمودي" لجسد مائل. علاوة على ذلك، ليس من غير المجدي فحسب محاولة التعرج لتقليل الانحدار، بل هو خطر أيضاً، لأن

تحريك قدم جانباً بين الجليد العمودي تقريباً والقدم الأخرى، التي تستقر بشكل غير مؤكد، هو مخاطرة كبيرة. ليس لدينا خيار آخر سوى الضغط للأعلى مستقلين عن بعضنا البعض لأنه إذا سقط أحدنا فسيجر الآخر بالتأكيد إلى موت محقق. ندفع فؤوس الجليد للأعلى بكل قوتنا، محاولين كسب ذلك القدر الأدنى من الأمان والممسك الذي سيتيح لرشاقتنا أن تعفينا من حفر ثقب في الجليد—هذا النشاط يمثل تحدياً حقيقياً لأذرعنا.

منظر الصدع الفاغر فاه تحتنا، الذي قد نسقط فيه نتيجة لخطأ بسيط، قد اختفى. نحن وحدنا في منتصف المنحدر الجليدي الذي لا يساوم، متروكين لمواردنا في السراء والضراء. وراء الصدع يربض جبل دوفور، جبل مهيب موسوم بحواف سوداء وقاسية. حولنا صمت غير بشري؛ تلك الخفة في الهواء التي تجعل كل إدراك حاداً، وتلك الحقائق العظيمة، الساكنة، الهادئة، والمشرقة التي تصنع تبايناً غريباً مع حالتنا الداخلية من التوتر وإحساسنا بالخطر المحدق. مثل

أجسادنا، نفوسنا أيضاً ليس لها سوى القليل من الدعم أو لا شيء. لا يوجد شيء متنوع أو "تصويري" (picturesque) في صعود نا، في واقع الأمر هو رتيب كحجر أو جدول جبلي. ثمة شيء مغلق تقريباً، وشرس، ولا يلين فيه. يتطلب هذا الصعود قوة محضة وإرادة محضة، هادئة، ولا تساوم. ببطء ولكن بثبات، ينشأ فينا شيء: تلك الحالة التلقائية، وشبه الخارقة للطبيعة من الأمن، وانعدام التعب، والصفاء الذهني التي تنشأ في المرتفعات العظيمة وفي مواجهة الخطر المميت، بعد استنفاد قوة المرء وأحاسيسه الأولية. نضغط للأعلى، بصعود، بعزم قوي، وهدوء غريب ودقة في كل حركة نقوم بها. في الأعلى، يمكننا رؤية الصخور الأولى لضلع الجبل قريبةً ونائيةً في آن، بفعل خداع المنظور الثلجي، فنيمم شطرها قاصدين. وحين نبلغ تلك الصخور أخيراً، تكابد أيدينا، التي نال منها التجمد رغم القفازات الثقيلة، لانتزاع ممسكٍ من الجليد، ويربكنا طول فأس الجليد؛ إذ كان فأسٌ أقصر ليغنينا، ولا يبدي المنحدر

العمودي أي انكسارٍ، حتى عند هذا المستوى؛ ومع ذلك، فإن التعامل معه أيسر من التعامل مع جدار الجليد الذي يعترضنا هنا وهناك بين الصخور، فنتسلق بخطىً حثيثةٍ، مهاجمين الصخر، معرضين عن تدابير الأمان بالحبل خشية أن نكون قد استنفدنا وقتاً طويلاً، وفجأةً، تنهار صخرةٌ وضعت قدمي عليها ظاناً إياها ممسكاً ثابتاً؛ وإذ تهوي إلى الأسفل، أهوي إثرها، وتكاد تكون معجزةً أن يوقف فأسي سقطتي فوراً، حتى قبل أن يتسنى لي تحذير ديفيد الذي يتقدمني، وكان ذاك هو الحادث الوحيد، والحق أن عدم تعرضنا لأي انزلاقاتٍ أو فقدانٍ للموطئ في مغامرةٍ كهذه، أديرت بالطريقة التي فعلنا، ليبدو لي أكثر من مجرد ضربة حظ.

توشك أضلاع الجبل أن تنتهي، وعيوننا، التي كثيراً ما ترنو إلى الأعلى، غريزياً ومسائلةً، تتأمل الآن نوعاً من الجرف ذي الكتل الجليدية والهوابط التي لامسها ضوء الشمس، وإلى يسارنا، تتساقط شظايا الجليد من علٍ بين الفينة

والأخرى، بســرعة مرعبة، تلامس جدار الجبل بالكاد، ثم ترتد خارقةً الهواء بأزيزٍ يشبه أزيز الرصاص، فكان حرياً بنا أن نسرع، ولا حاجة بنا للاشــتباك مع الكتل الجليدية؛ إذ يمكننا الانعطاف يميناً والمضــي حيث الجرف أقل انحداراً، وأخيراً، وإذ ندنو من القمة، مغمورين بضــوء الشــمس، نتوقف لالتقاط أنفاســنا العميقة، وأمامنا، يتناقص انحدار الجدار بسرعةٍ إلى خمسٍ وأربعين درجةً أو أقل، والأفضل من ذلك، أنه مغطى بطبقةٍ من الثلج الحديث المتماســك، وفوقنا القمة! لا يزال الشــكل المميز الشــبيه بالحامل الثلاثي لليســكام الشــرقي هناك، واضـحاً للعيان في الخلفية أمامنا مباشرة، وما كان لنا أن نصيب هدفنا المنشود بدقةٍ أكبر، وديفيد، الذي درس مســارنا من جبل دوفور، يزهو فخراً، ويحق له ذلك، فلا نتوقف بل نضغط قدماً بخطىً سريعة، وهنا وهناك مزيدٌ من المنحدرات والجليد الصلب، نتجاوزها دون ترددٍ بتتبع ملامح الصخور الداكنة؛ وهذه المنحدرات أرفق بنا من سابقاتها، وفي الساعة الحادية عشرة والنصف

صباحاً نبلغ القمة أخيراً، وقد استغرق صعودنا خمس ساعاتٍ ونصف الساعة بالضبط، ولسنا بآسفين على ذلك، بالنظر إلى الظروف الصعبة للجدار الجبلي.

لقد استحال ضوء النهار مجيداً وبراقاً، والآن، وعقب العمل، يحل التأمل، إنه أوان الاستمتاع بالقمم والمرتفعات من موقعنا المميز: حيث تغدو الرؤية دائريةً وسماوية، وحيث تتلاشى هموم الناس العاديين التافهة، وصراعات حياة السهول التي لا طائل منها؛ وحيث لا يوجد شيءٌ آخر سوى السماء والقوى الحرة الجبارة التي تعكس الجوقة الجبارة للقمم، "أمتارٌ كثيرةٌ فوق سطح البحر، ولكن أمتاراً أكثر فوق ما هو بشري!" هكذا كتب فريدريك نيتشه منذ زمنٍ بعيد، أما رحلة عودتنا فخاليةٌ من الأحداث، وبما أن حالة الثلج تمنعنا من الهبوط عبر الجدار الجنوبي الغربي، على الجانب الأيمن من "الأنف" (كما خططنا أصلاً وحاول صديقي ديفيد)، نعبر الليسكام على طول جانبه الطويل، منعطفين يساراً، متتبعين الحافة، متجهين نحو جبل

ليسيوش، وبعد ساعتين نصل إلى ملجأ الجبل، "غنيفيتي"، وكنا قد تركنا هناك، لعودتنا، شيئين مختلفين جداً ولكنهما متكاملان: زجاجةً من ويسكي الحصان الأبيض، ونصاً في الزهد المحارب، هو "الباغافاد غيتا".

ملحوظات بشأن التدريب النفسي في الجبال

من بين الغرائب الكثيرة التي سطرتها ألكسندرا ديفيد-نيل عن إقامتها الطويلة التي امتدت ثلاثة عشر عاماً في هضاب التبت، وعلى قمم الهيمالايا، وفي السهوب المنغولية، تبرز واحدةٌ على وجه الخصوص؛ فقد كانت ترحل لأيامٍ عديدةٍ عبر منطقةٍ شاسعةٍ من الصحراء والجبال مع قافلتها، حين لمحت، من بعيد، نقطةً سوداء صغيرةً متحركة، وحسبتها في البدء حيواناً -وهو أمرٌ غريبٌ بالنظر إلى المحيط المقفر- ولكن بعيد هنيهةٍ تبينت أنه رجل، فظنته مسافراً ضالاً، أو ناجياً من قافلةٍ مبادة، فصاح أحد أفراد جماعتها بالرجل، وكان الرجل يقترب ومع ذلك لم يحاول الرد، وكأنه لم يلحظ الأصوات أو حتى قافلة ديفيد-نيل، ورأوا أنه كان يركض تقريباً، بخطواتٍ إيقاعيةٍ ومرنةٍ واسعة (وقد قارنت ديفيد-نيل الانطباع الذي تلقته بانطباع الحركة البطيئة السينمائية)، متبعاً خطاً مستقيماً، ورأسه مستقيم، يحدق أمامه، ومر بجوار هؤلاء القوم دون أن يلحظهم، ثم مضى

أبعد فأبعد، محافظاً على الإيقاع ذاته، ومن القافلة، قرر أحدهم تتبعه على صهوة جواد، حتى رأى الرجل يتسلق منحدراً شديداً، متبعاً الاتجاه ذاته دائماً ومحافظاً على الوتيرة عينها، حتى اختفى بين المنحدرات الصخرية.

وتروي ديفيد-نيل أيضاً أن من بين الإمكانات العديدة التي رعتها حضارةٌ كالحضارة التبتية، التي ركزت لآلاف السنين على دراسة البعد النفسي بدلاً من البعد المادي للناس والأشياء، إمكانية استحثاث حالاتٍ ذهنيةٍ خاصة، وفي أثناء هذه الحالات يمكن القضاء على التعب والسفر لأيامٍ وليالٍ دون أي راحة، مع قليلٍ من الطعام أو دونه، وتروي أيضاً أن هذه القوى تمنى في التبت عبر ممارساتٍ خاصةٍ تهدف في المقام الأول إلى نيل السيادة على تنفس المرء وعقله، إذ يجب أن يكتسب العقل القدرة على تطوير تركيزٍ مطلق (وتستخدم الرموز والصيغ أحياناً لمساعدة العقل على البقاء مركزاً أثناء مسيرٍ قسريٍ كهذا)، وبعد تحديد الهدف المراد بلوغه واتجاهه العام بالنسبة لنقطة الانطلاق، يدخل

الفاعل في حالةٍ ذهنيةٍ استثنائية، لا يمكن وصفها بالوسيطية أو الشبيهة بالغشية (Trance)، لأنها بدلاً من أن تكون دون الوعي، فهي فوق الوعي؛ وبعبارةٍ أخرى هي حالةٌ فاعلةٌ لا منفعلة، والتشابهات الوحيدة مع الغشية هي مجرد سماتٍ سطحيةٍ خارجية، ومن تلك اللحظة فصاعداً، تتركز قوة الشخص الداخلية على الهدف؛ وبطريقةٍ ما، ينفصل الفاعل عن الكائنات الأخرى وعن العالم الخارجي، باستثناء الأرض التي أمامه مباشرة، وما يحل هو وتيرةٌ سريعةٌ لا تعرف الكلل تظل ثابتةً سواء في السهل أو المنحدر، وينبثق شيءٌ آخر، ألا وهو حس توجيهٍ خارقٌ للعادة، غريزي، ومباشر، وهكذا، دون توقف، يسافر هؤلاء الكائنات الغريبة إلى الموقع المحدد سلفاً، حتى لو كان على بعد عدة أيامٍ وليال، وكأنهم عاشوا خارج الزمن، وكانت قافلة ديفيد-نيل قد صادفت واحداً من هؤلاء المسافرين في وسط هضبةٍ تبعد عدة أيامٍ عن أقرب مركزٍ مأهول، وقد علمت بحالاتٍ أخرى، سواءً عبر التجربة الشخصية أو عبر الرواية الشفهية،

وتتطلب الجدية المعترف بها عالمياً لهذه الكاتبة والرحالة أن نصدق أن هذه ليست قصصاً ملفقةً أو ثمار خيالها، وعلينا أن نتفق مع إحدى مقولات شكسبير، التي مفادها أن "في السماء والأرض أشياء أكثر مما هو موجودٌ في كل فلسفة الإنسان".

وبإيرادي لهذه الحادثة في هذا السياق، لست أحث الناس قطعاً على أن يصبحوا "يوغيين" تبتيين وأن يكرسوا أنفسهم لممارسات التطوير النفسي الخارقة للعادة، فبالنظر إلى كل الاعتبارات، هذه الممارسات ليست ملائمةً حقاً لعقلية وتكوين الإنسان الغربي الحديث الجسدي؛ ومن ناحيةٍ أخرى، لا أذكر هذه الحادثة بدافع الفضول فحسب، بل الحقيقة هي أنه، فيما يتعلق بتسلق الجبال، توجد إمكانياتٌ للتدريب الداخلي التي، دون أن تكون خارقةً للعادة أو دراميةً كقصة ديفيد-نيل، قد تقود أولئك الذين ينمونها إلى أبعد مما يصل إليه أولئك الذين لا يفعلون، وهذه الإمكانيات ليست بعيدة المنال، ويمكننا أن نقر بأن من بين المتسلقين

الجادين قلةً ممن طوروا هذه الإمكانيات بطريقةٍ جزئية، دون وعيٍ بها ودون استخدام منهجٍ محدد؛ بل تطورت هذه الإمكانيات كنتيجةٍ غير مباشرةٍ لتدريبٍ جسديٍ محضٍ أجري في ظروفٍ خاصة، ومن الضروري البدء بالاعتراف بالطابع الميكانيكي للتدريب الرياضي بشكلٍ عام، بصرف النظر عن بعض الاستثناءات التي يكاد يكون من الممكن دائماً رصد وجود مستوىً روحيٍ معينٍ فيها، وفي هذا النوع من التدريب الرياضي، تشبه علاقة "الذات" بالجسد العلاقة التي قد تكون لشخصٍ مع شخصٍ آخر أو حيوان يعتزم السيطرة عليه وإخضاعه لإرادته، ولا توجد حقاً علاقةٌ مباشرةٌ بينهما؛ فالذات تأمر الجسد، عبر الأعصاب والعضلات، بأداء حركاتٍ معينةٍ أو بذل جهودٍ معينة، ونتيجةً لذلك، تتولد بعض ردود الفعل (كالتعب، والألم، وما إلى ذلك)؛ وعبر التكرار يحاول المرء القضاء على ردود الفعل هذه وخلق عاداتٍ واستعداداتٍ تلقائيةٍ تدريجياً في الجسد لم تكن لديه سابقاً، وبمجرد إنجاز ذلك، يكف الجسد

عن المقاومة والمعاناة، ويطيع كما في الحركات العادية، كحيوانٍ مروض، وهكذا، يكون مستوى التدريب المطلوب قد أنجز.

ومع ذلك، لكي نختبر إمكانياتٍ كهذه، يجب على المرء أن يعترف بعنصرٍ ثالث، ذي طبيعةٍ وسيطة (ليس بنفسيٍ ولا بجسديٍ محض) بين الجسد والذات، والذي قد نطلق عليه القوة الحيوية، أو المبدأ الحيوي، وبطريقةٍ ما، كان هذا العنصر معترفاً به دائماً في التقاليد القديمة التي، في هذا الصدد، كانت لديها رؤىً أكثر اكتمالاً لطبيعة الإنسان من تلك التي صاغها العلم الوضعي الحديث، وهذا العنصر هو أساس حياة الجسد، وإحدى الوظائف التي يرتبط بها ارتباطاً مباشراً هي التنفس، ومن الممكن تحقيق نوعٍ مختلفٍ من التدريب والسيطرة على البعد الجسدي بالعمل على هذه القوة الحيوية، بجعل الفعل يعتمد عليها، بدلاً من العمل مباشرةً عبر الأعصاب والعضلات وما إلى ذلك، وتكمن الصعوبة في حقيقة أن القوة الحيوية تظهر نفسها على مستوى

اللاوعي الجسدي وبالتالي لا يمكن التحكم بها فوراً (باستثناء بعض الحالات الخاصة والاستثنائية - وسأشير لاحقاً بإيجازٍ إلى تأثير المرتفعات العظيمة)، ومع ذلك، يمكن للإرادة أن تعمل بسهولةٍ على التنفس، وهكذا، وبفضل العلاقة المذكورة آنفاً بين التنفس والقوة الحيوية، يمكن تحقيق الهدف، وتلك هي المقدمات، وعلى أساسها يمكن للمرء أن يقرن تدريباً جسدياً محضاً بتدريبٍ نفسي (أو هل ينبغي أن أقول نفسياً-جسدياً) لا يكون الفاعل فيه مجموعة عضلاتٍ، ناميةً كانت أم ضامرة، بل قوةً روحيةً مباشرة؛ وهكذا سنرى أن بعض القيود التي تواجهنا في النوع الأول من التدريب يمكن تجاوزها بتطبيق النوع الثاني، وفيما يتعلق بتسلق الجبال على وجه التحديد (ولا أعني بهذا المصطلح المآثر البهلوانية أو تجاوز الجدران العمودية، بل الظروف التي يتطلب فيها التسلق، مهما بلغت صعوبته، وتيرةً مستمرةً معينة)، يمكننا التمييز بين طريقةٍ شائعةٍ وطريقةٍ أصفها بالهجوم.

وبالنظر إلى أن سطوة العنصر الأخلاقي-النفسي على البعد الجسدي معروفةٌ بما يكفي، فلن أشدد عليها في هذا السياق: فمن خلال الموارد الداخلية ومشاعر التسامي أو الحماس، أثبتت حتى الأجساد الضعيفة والمنهكة، في حالاتٍ لا تحصى، قدرتها على التغلب بنجاحٍ على الصعوبات والانخراط في أكثر الجهود هولاً ومشقة (وفي زمن الحرب كانت هناك أمثلةٌ وفيرةٌ على ذلك)، وأي شخصٍ مارس التسلق قد يتذكر أي تدفقٍ غريبٍ لقوةٍ جديدةٍ قد حدث أحياناً عندما، بعد الشعور بالإنهاك الحرفي جراء عاصفةٍ والوصول تقريباً إلى نقطة الاستسلام، يتم فجأةً التعرف على المكان وطريق السلامة؛ أو عندما، بعد ساعاتٍ قضيت على وجه الجبل، مع الشعور بالإرهاق والشك حول المخرج، يرى المرء أخيراً القمة المنشودة، وقد أطلق علم النفس اسماً على هذه الظاهرة: "النفس الثاني" (ويليام جيمس)، وبهذه الطريقة يجب أن ندرك، أنه بصرف النظر عن القوة الحيوية، التي تعمل عادةً في الأطراف والأعضاء المتصلة بها، يوجد خزانٌ

أعمق وأعظم لا يظهر إلا في ظروفٍ استثنائية، غالباً تحت تأثير عاملٍ نفسي أو عاطفي، وهكذا، تكمن المهمة في إيجاد طريقةٍ للاستفادة من مصدر الطاقة الخفي هذا، الذي يختبر جوهره، مع ذلك، بشكلٍ غريزي، وعرضي، وعاطفي، والطريقة الأولى لتحقيق هدفٍ كهذا حدسيةٌ نوعاً ما، فبادئ ذي بدء، من الضروري إفراغ الذات والاستعداد لاستنفاد كمية الطاقة المتاحة للجسد بأسرع ما يمكن، حتى بلوغ مستوىً حرجٍ من الإنهاك، وعندها، ما يحدث هو ظاهرة النفس الثاني، حيث تجبر الطاقات الحيوية الاحتياطية على الظهور، وبما أنها غير متصلةٍ بالجسد المادي، فهي غير محدودة؛ ويمكنها فعل ما هو أكثر بكثيرٍ من الطاقات المادية، وهكذا، يدخل المرء في إيقاعٍ جديدٍ وحالةٍ من انعدام التعب.

وعليه، ولجميع الأغراض العملية، يمكن للمرء الإطاحة بالسلوك المعتاد بين المتسلقين المتمثل في محاولة تجنب الإنهاك بالمضي بوتيرةٍ بطيئة، وذلك عبر تعمد الإعياء بأسرع

ما يمكن، ومواجهة الصعود هجومياً، تماماً مثل أولئك الهواة المتحمسين الذين يقول عنهم المتسلقون الخبراء: "في أقل من عشرين دقيقةً سنجدهم جالسين، يلهثون، في انتظارنا"، إن الذي "يعلم" يبدأ التسلق هجومياً ويستمر على هذا المنوال: فهو الذي يضطر لانتظار الآخرين في الأكواخ أو على قمم الجبال، أحياناً لساعات، دون أن يلهث، والأفضل من ذلك، دون أن يكون متعباً بقدر الآخرين، ويكمن السر في الجزء الأكبر منه في التنفس، فمن الضروري اعتياد الشعور بالنفس، والسيطرة عليه فوراً من الخطوة الأولى، دون تركه يفلت أبداً، وثانياً، من الضروري ربط إيقاع التنفس بوتيرة المشي، دون كسر هذا الرابط أبداً: شهيقٌ أثناء أخذ خطوة، وحبس النفس بين الخطوات، وزفيرٌ أثناء القيام بالخطوة التالية بالساق الأخرى، وهكذا دواليك، ونظراً لاختلاف الانحدارات، عندما يكون الصعود أكثر حدةً يمكن للمرء تنظيم وتيرة المشي وحتى إبطاؤها، وفي المناطق الأكثر استواءً يمكنه حتى تسريع هذه الوتيرة، دون كسر التوافق

بين إيقاع التنفس ووتيرة المشي لأي سببٍ كان، وهذه التقنية لها نظيرها في العادة التي يرعاها المتسلقون المتمرسون وأدلاء الجبال، الذين يحافظون على الوتيرة نفسها دون التوقف أبداً لالتقاط أنفاسهم، والفرق هو أنه في الحالة الأولى، يجب فعل ذلك بطريقةٍ واعيةٍ ومسيطرٍ عليها وليس بطريقةٍ آلية، والمقصد هو تفعيل قوةٍ نفسيةٍ لأن الوتيرة يجب زيادتها ومع ذلك يجب الحفاظ على ذلك الاتصال بالتنفس، وهكذا، ما يحدث بعد وقتٍ قصيرٍ هو حالةٌ من الإعياء قد تدفع معظم الناس لكسر الاتصال من أجل التنفس بتواترٍ أكبر أو حتى التوقف لالتقاط الأنفاس، وبمجرد بلوغ حدٍ معين، يتطلب فعلٌ داخليٌ للمضي أبعد، وعندها تحل حالةٌ جديدةٌ يشكل فيها المشي والتنفس وحدةً طبيعيةً لم تعد تتطلب إشراف المرء؛ لا يعود ثمة تعبٌ ويتم الحفاظ على السرعة الأولية للهجوم بلا جهد، تقريباً عبر دافعٍ داخلي غامض، بل وتزداد السرعة رغم الانحدارات الشديدة، وما كنت لأتحدث عن هذا لولا أن لي تجربةً

شخصيةً فيه، وإن كانت محدودة، ولولا أنني تحققت شخصياً وسمعت مراراً من آخرين كيف أنه، بهذه الطريقة، يمكن إنجاز التسلقات في نصف الوقت (أو حتى أقل) مما يستغرقه دليلٌ جبليٌ أو متسلقٌ مدربٌ جيداً، علاوةً على ذلك، لقد تحققت شخصياً من الظاهرة الغريبة حيث، بمجرد أن حاولت التوقف للحظةٍ فقط، حثتني قوةٌ غريبةٌ كانت خارج سيطرتي تقريباً على المضي قدماً على الفور، والفعل الداخلي الذي يفعل الموجة الثانية في اللحظة الدقيقة التي تستنفد فيها الطاقات المعتادة لا يكاد يوصف أو يلقن؛ إذ يحتاج كل شخصٍ للعثور عليه بنفسه، ومع ذلك، لا يكاد يفهمه أولئك الذين لم يتعلموا قسمة نفوسهم إلى شطرين: واحدٌ يستخدم للأمر المطلق، والآخر للطاعة غير المشروطة.

وأود إضافة تعليقين موجزين، الأول يتعلق بالقلب، فتدريبٌ كهذا لا ينصح به لمن يعانون من حالةٍ قلبية، لكن الأصحاء لن يضيرهم ذلك بالتأكيد، وليس هذا سياق الشرح المطول للسبب؛ سأكتفي بالقول إنه من الخطر على صحة المرء

الانخراط في تدريبٍ ذي طابعٍ جســـديٍ محض، يعمل فيه المرء بشكلٍ آلي تقريباً دون أي اتصالٍ بالوظائف الداخلية، مخضــعاً الطاقات المحدودة المتاحة للأعضــاء للإرهاق غالباً، وعلى العكس، تقل الأخطار عندما لا يعود الدعم الحقيقي مقدماً من الجسد بل من الروح، وحيث تستحضر طاقاتٌ غامضــــة، وخارقةٌ للطبيعة، وعميقة المكمن، والتي لم يتمكن حتى علم النفس الموازي (Parapsychology) الحـديـث من قياس كل إمكانياتها، وهذا ليس، كما قد يظن البعض، جهداً مقدراً له أن تكون له تداعياتٌ مميتة، مثل انهيار الجسد في وقتٍ لاحق، وأولئك الذين تعلموا حقاً إتقان هذا التدريب لا يشـــكون من أي رد فعلٍ بهذا المعنى: ويمكنني الشهادة من واقع التجربة الشخصية، فقد قضيت فتراتٍ صــيفيةً طويلةً في الجبال وعلى الأنهار الجليدية أمارس تلك التقنية دون أي عاقبةٍ ســـلبيةٍ على جســـدي أو جهازي العصبي.

ملاحظتي الثانية تتعلق بالمرتفعات العظيمة، فالمرتفعات العظيمة (من ٣٥٠٠ متر فما فوق) تمثل ظروفاً مواتيةً بشكلٍ خاصٍ للتدريب الجبلي النفسي، فهي تتيح الفرصة لتكشفٍ أسهل وأكثر تلقائيةً للقوة الحيوية، ولا يخلو ذلك من إشارةٍ إلى الإيقاع المختلف للدورة الدموية، الذي يسببه الضغط الجوي الأخف، ويمكننا القول حتى—من وجهة نظرٍ داخلية، لا تلك التي يقتصر عليها الطب العادي—إن "دوار الجبل" يشكل ظهوراً تلقائياً لهذه الظاهرة لدى شخصٍ لم يكن قادراً إلا على تجربتها بطريقةٍ سلبية، وعندما يفترض هذا الظاهرة وتحقق بشكلٍ فاعل، يستبدل بدوار الجبل شعورٌ بالخفة، وانعدام التعب، ونشوةٌ تكاد لا تبلد الحواس بل تمنح الصفاء، وحسٌ بالاندفاع للعمل، وهو الحس ذاته الذي، في التدريب النفسي، يرافق دائماً كل صعودٍ بطريقةٍ حيويةٍ ومميزةٍ خاصة، ماحياً إدراك الزمن تقريباً.

سأختم بهذه الملاحظة، ففي المثال الذي قدمته سابقاً لاستخدام التنفس في التسلق، لم أرم إلا للتلميح إلى حد إمكانياتٍ معينة، ومرةً أخرى، أود التكرار بأنني لا أقصد بأي حالٍ اقتراح أن على المتسلقين أن يصبحوا مثل الفقراء (Fakirs)، ففي النهاية، حتى في الشرق، ينظر إلى الفقراء، أولئك المشغولين بإنتاج مآثر مذهلة، من قبل الطوائف العليا باحترامٍ لا يزيد عن احترامنا للسحرة، ليس هذا ما أتحدث عنه، وحتى الرغبة في القدرة على تسلق جبلٍ بوتيرةٍ سريعةٍ هي أمرٌ قابلٌ للنقاش، ومع ذلك، في كلٍ من الأوصاف المذكورة آنفاً، يوجد جانبٌ داخليٌ وآخر خارجي؛ والأول فقط هو الجوهري، أما الأخير فمجرد تبعة، وقد لاحظت أن ما ذكرته في هذا السياق حول التقنية هو غالباً جزءٌ من تجربة أفضل المتسلقين، أولئك الذين لا يعتبرون التسلق مجرد رياضة، فأولئك الذين، في كل صعودٍ جسدي، يختبرون قليلاً من حس الارتقاء الداخلي؛ وأولئك الذين ينظرون إلى كل ارتفاعٍ جليديٍ كرمزٍ لبلوغٍ غير ملموسٍ

تقريباً، وأولئك الذين يدركون حقاً رسالة المساحات الشاسعة، حيث لا يوجد إلا السماء وقوىً حرةٌ ونقية—هم الأرجح أن يختبروا أنفسهم لا كـ"جسد"، بل كـ"حياة"؛ وهم الأرجح أن يحولوا حيواتهم بتوترٍ حيويٍ خلاقٍ لدرجة تحقيق نتائج التقنية التي أصفها، وعلى النقيض، أولئك الذين لا يصعدون وكأنهم محمولون بواسطة الجسد كما لو كان دابة حملٍ مدربةً جيداً، بل يحرسون قوى الجسد الحيوية، فيدعمون الجسد بشكلٍ مباشرٍ وواعٍ بطاقتهم الداخلية، وبذلك يعلونه، وينشطونه، ويدفعونه للأمام بطريقةٍ لا تحتاج للصراع ضد وهن اللحم وثقله، هم الأكثر احتمالاً لإدراك المعنى الطقسي للصعود بعمق، ذلك المعنى الحي للتطهير والتحرر، الذي رأى العالم القديم بموجبه (من جبل أوليمبوس اليوناني إلى جبل ميرو الهندوسي) في المرتفعات العظيمة المسكن الرمزي للكيانات فوق البشرية: فما وصفته في هذا الفصل هو أحد جوانب ما قد يكون القدماء قد اختبروه كمقدسٍ على الجبل.

١١.صعود جبل لانغكوفيل

"كم ســـاعةً بقيت للقمة؟" يســـأل أحدهم، فيجيب الدليل الجبلي بصوتٍ خافت، ناظراً إلى مكانٍ آخر، وكأن الأمر لا يســـتحق النظر إلى الجبـل أو إلى النـاس: "أربع"، وأربع ســـاعاتٍ ليســـت وقتاً طويلاً، ومع ذلك، فمعرفة ذلك لا تجعل القمة تبدو أكثر وداً، فالجبل، ذو اللون الرمادي الموحد، يبدو وكأنه يرتكز في حوضٍ ضيقٍ من الثلج المتجمد ثم يتفرع كالفطر إلى عددٍ من الأبراج والمسـلات التي تبدو وكأنها تضيع في المسافة، وبعيداً ترقد القمة، غير مرئيةٍ للعين المجردة، وتقول امرأةٌ تعيش في ملجأ الجبـل، بـازدراءٍ في صـــوتها تقريباً: "الكثير من الناس يصـــعدون هناك، ذات مسـاءٍ أنزلوا شخصـاً قد مات، ومرةً أخرى أحضـروا رجلاً بكسـرٍ في السـاق، يصـعدون هناك بأنفسـهم، ثم، ودائماً تقريباً، يضطر الدليل الجبلي للصعود وإعادتهم"، وتبدو المرأة وكأنها تتحدث إلى نفســها، وتغادر وكأن شـيئاً من هذا لا يعنيها، فأتذكر تلقائياً القول المأثور: "الناس يجيئون ويذهبون،

لكن الجبل يبقى"، وأنظر إلى المسلات التي يغمرها الشفق، فتبدو وكأنها تطرح علي سؤالاً صامتاً.

في الصباح التالي عند الساعة السابعة أغادر الملجأ، وتحجب سحبٌ كثيفةٌ في الأفق ضوء الشمس المشرقة لكن السماء في الأعلى حرةٌ ونقيةٌ والجبل بلون الرصاص، وأتسلق بصبرٍ الركام الصخري؛ وهي مهمةٌ تتطلب تركيزي لأنني كثيراً ما أفقد توازني مع الانزلاقات المتكررة، وأتجه صوب المكان الذي، وفقاً للخريطة، يجب أن يبدأ منه هجومي على وجه الجبل، ويتحتم علي التحرك يساراً لأن الجدار أمامي عموديٌ تماماً، وبدءاً من اليسار، أحتاج لمهاجمة الصخر ثم التحرك قطرياً نحو وادٍ صغيرٍ يقع في الأعلى، فأضغط قدماً، وفي الأمتار القليلة الأولى أتقدم بشكلٍ أعمى، محركاً أطرافي الأربعة باستمرارٍ بحثاً عن ممسكاتٍ غير مرئية، وعندما أنجح أخيراً، بعد الالتفاف حول الصخرة الأولى الملساء والبارزة، في العثور على موطئ قدم، أشعر أنني بلغت نقطة أفضليةٍ عظيمة، ويصبح التعامل مع الصخر أسهل والآن أستطيع

التسلق عمودياً، وأبعد من ذلك هناك تتابعٌ آخر من الصعود والهبوط القطري الذي يقودني إلى الوادي الصغير في المنتصف، ساعةٌ ونصفٌ قد انقضت ونحن على بعد بضع عشرات الأمتار فقط من القاعدة، التي تبدو بعيدةً جداً رغم كونها تحتي مباشرة، لأن الجدار شديد الانحدار يفصلنا.

وها أنا ذا، على المنخفض الضيق المرقط بالثلج، لكننا لا نزال بحاجةٍ للوصول إلى القاعدة الحقيقية لجبل لانغكوفيل، وتبدو قناةٌ جليديةٌ إلى اليسار، بين الجدران الجبلية المسببة للدوار، وكأنها الطريق الوحيد الممكن، ولحسن الحظ معي فأس جليد؛ ويتطلب نحت الكوات قوة، لذا أنخرط في جولاتٍ قصيرة، مخاطراً بفقدان التوازن، من أجل كسب مسافةٍ وتوفير الطاقة، ومع ذلك، كلما تسلقت أكثر بدت القناة الجليدية أطول، وبعد النجاح أخيراً في الوصول إلى قسمٍ آخر من الصخر النقي، ينكشف مشهدٌ جديدٌ أمام عيني: سلسلةٌ من الصخور، والزوايا، والأبراج، والقمم

المتقاطعة فوق بعضــها البعض، كل قمةٍ تبدو هدفاً، وكل صخرةٍ طريقاً، وبعد راحةٍ قصيرةٍ ننتقل (ومرةً أخرى أختبر الشـــعور الغريب من أعماق كياني بدافعٍ تلقائيٍ تقريباً يحثني قدماً)، معتمدين على قوة ســواعدنا، من صخرةٍ إلى صخرة، ويغدو المنظور الصخري أوسع وأكثر تعقيداً كلما صعدت، وعندما أظن أنني وصـــلت أخيراً إلى القمة، تظهر صـخرةٌ أخرى للتســلق، وتبدأ الأبراج تبدو أنحف، متجمعةً معاً، بعيدةً جداً، والآن، وأنا أتبع طريقاً افتراضياً، تتجمع معاً على الجانب، لتصبح شيئاً هوائياً وزائلاً يرتكز في السماء، وفجأة، أخرج على العرف.

الريح تعصـــف، والأفق دائري، وتحتي الوادي مغطىً بالسحب: القمم والأنهار الجليدية فقط، المعلقة في السماء، هي المرئية بوضـــوح، ولا يزال جبل لانغكوفيل أمامي كتشـــابكٍ من القمم العمودية، فماذا علي أن أفعل؟ أهبط قليلاً، على الجانب المقابل لخط العرف، ومتبعاً علامات خدشٍ إلهيةً لنعالٍ مسننةٍ على وجهٍ صخريٍ ملتوٍ جعلت تسلقه

سهلاً صخورٌ كثيرةٌ على الأرض، أصعد فجأةً مرةً أخرى، وتتضاعف الممسكات، وتصبح جدران الجبل أكثر انخفاضاً، وأشعر بتدفق قوةٍ جديدةٍ وحماسة الغزو، وها أنا ذا، وحيداً على قمة الصخرة الأخيرة، ولا يوجد شيءٌ آخر حولي، الريح تعصف، لكن السماء المفتوحة تبتلعني، وعندما أنظر إلى الأسفل مرةً أخرى نحو الوادي، يبدو المنظر بعيداً عن أن يكون مبشراً، فقد وصلت السحب إلى موقعي ومن القاع تتصاعد الأبخرة بسرعةٍ كبيرة، موجةً تلو الأخرى، فأنظر إلى ساعتي، ياللهول! سبع ساعاتٍ قد ولت، لقد حان وقت العودة، فأسير مرةً أخرى على الحافة، لكن أثناء الهبوط تغدو الصخور شديدة الانحدار بشكلٍ متزايدٍ والممسكات أقل موثوقية، ومن المظهر البخاري والوهمي للأشكال الصخرية والقمم التي وصلها الضباب الآن، أنتقل إلى جوٍ عديم اللون، معتم، ورطبٍ بشكلٍ غادرٍ يخفي كل شيءٍ عن الأنظار، فأتقدم ببطء، ولكن دون جدوى؛ ثمة

احتمالُ أن أضــل طريقي، فأرتدي ســترتي الثلجية وآكل شيئاً، وجاثماً في وادٍ صغير، أنتظر.

ولم تكن مفاجأةً ســارةً بالكاد حين أدركت أنها الســاعة السادسة مساءً بالفعل عندما تمكنت أخيراً من دخول القناة الجليدية بعد ممرٍ صــعب، وللمفارقة، يصــفو الجو تماماً حين تبدأ الشــمس بالغروب خلف القمم العالية! ودون إضــاعة ثانيةٍ أنزلق أســفل الجليد، غارزاً فأس الجليد فيه بكل قوتي لإبطاء هبوطي، وبالسرعة ذاتها أدخل الوادي الصغير، ومع ذلك، لا أستطيع العثور على الطريق، فالصخر زلقٌ بسبب الرطوبة وكل حركةٍ تتطلب فحصاً دقيقاً، وانتباهاً، وصبراً، وأخيراً أرى بقع الثلج، جيد، فأتحرك قدماً، لكن حيث يبدأ الهبوط لم أعد أستطيع رؤية أي شيءٍ وبالكاد أستطيع توجيه نفسي، وأنا غير متيقنٍ بشأن طريق العودة، فتستقر حالةٌ ذهنيةٌ جديدة: القلق والضجر، وبعد بضعة أمتارٍ أدرك أنني ارتكبت خطأً، فيجب أن أصــعد ثانية، وعلى الجانب الأيمن يبدو الأمر أفضل، فأمضي، ومع ذلك أتساءل إلى

أين سينتهي بي المطاف، لا يوجد سوى قليلٍ من الضوء على القمم وفي الأسفل لا أستطيع تمييز أي شيءٍ بوضوح، وقد استحال الصخر كتلةً موحدة، باردةً كالثلج، ولا مبالية، وعند هذه النقطة لا يبدو مهماً إن ذهبت في هذا الاتجاه أو ذاك؛ لدي شعورٌ بالذهاب نحو الفراغ، وكأنني مع كل خطوةٍ على وشك السقوط والقذف بي فيه، وتتشبث الأصابع غريزياً وبعصبيةٍ بالممسكات؛ والأقدام غير ثابتة، متعبةٌ من الوضعية ذاتها، وتحاول الوصول إلى الفراغ، لكن عندما لا تشعر بشيءٍ سوى جدار الجبل المسطح، تعود إلى البقعة التي كانت تشغلها، أحتاج لإيجاد مخرج، لكن لا يبدو أن لدي خياراتٍ كثيرة، وليس من الممكن التوقف هنا، يمكنني العثور ثانيةً على الوادي الصغير وقضاء الليلة هناك لكن العثور عليه ثانيةً قولٌ أيسر من الفعل بسبب الظلام الدامس، ولا أستطيع إيجاد طريق عودتي بيدي فحسب؛ ولا أعلم ما ينتظرني حتى لو تغلبت على هذه العقبة الفورية أو تلك، يجب أن أحافظ على رباطة جأشي،

وأسيطر على أعصابي، وأحافظ على تركيزي الشديد، لا بد من النزول، بطريقةٍ أو بأخرى، وهكذا أبدأ هذا الهبوط المذهل في الظلام والفراغ، واثقاً فقط في خفة أطرافي، زاحفاً ببطءٍ شديدٍ على طول جدار الجبل، بحس لمسٍ ووعيٍ متزايد، وتستمر قدمي في البحث والانزلاق لأسفل بينما تحفظ الجسد في توازن، مهما كان غير مستقر، حتى تتوقف وتخاطر، إنها مغامرةٌ أن تفلت اليد دون معرفة ما إذا كان الجسد سيصمد، وأشعر بارتياحٍ كبيرٍ في كل مرةٍ أشعر فيها بمسكٍ جديد وأتمكن من استعادة توازني، لقد أصبح جسدي شيئاً واحداً مع الصخر، وتحركه براعةٌ غريزيةٌ وصفاءٌ خارقٌ وغير متوقع، وتجربة عدم معرفة أين أنا مستمرة—أصبح الظلام شيئاً دائماً، مادياً، كثيفاً، أبدو وكأنني أتحرك فيه باستمرار.

وفجأة، أظن أنني أرى وميضاً، أيعقل؟ نعم! إنه ضوءٌ يتأرجح ويأتي نحوي، وأستطيع سماع شخصٍ يصرخ في اتجاهي، فأجيب بصوتٍ لا يكاد يبدو كصوتي، ويقترب الضوء

بســـرعة، قافزاً تقريباً، كيف يعقل، حتى لو كان الدليل يركض؟ ومع ذلك، بعد بضـع دقائق فقط، أسـتطيع تبين ملامح وجه فرانز بروشيك في الظلام، ويصرخ بي: "من هنا! لقد نجوت!"، وبقفزةٍ يتسلق الدليل النمساوي إلي ويناولني طرف حبل، "اربط هذا حولك، نحن على الركام، لم أظن أنني ســأكون قادراً على إيجادك، فلنذهب الآن"، والآن أدرك وجود ضــوءٍ ثانٍ على الصـــخر، يحمله الدليل الجبلي الإيطالي كارلو دي نيتز، "إلى أين بحق الجحيم أنت ذاهب؟" أسألهما، "أتظن أن كلينا أتينا كل هذه المسافة إلى هنا فقط لالتقاط مجنونٍ مثلك؟" يقول دي نيتز، "نحتاج للعثور على ستة أشخاصٍ آخرين هم على وشـك قضـاء الليلة على النهر الجليدي، بحق الســماء!"، وبعد قليلٍ تلامس قد ماي الأرض بعد ست عشـرة سـاعةً من المغامرة، وفي الأعلى يواصل الضوءان مسيرهما على طول الصورة الظلية الداكنة العظيمة لجبل لانغكوفيل، الذي يبرز بمهابةٍ مقابل خلفيةٍ

من سماءٍ مرصعةٍ بالنجوم، وفي الأسفل، تعد أضواء الملجأ بعشاءٍ مستحقٍ وسريرٍ وثير.

١٢.الجليد والروح

أورتلر، كانت الليلة الماضية عاصفة، وعند الفجر، بالنظر من ملجأ باير الجبلي، منحتنا فجواتٌ من السماء الزرقاء، مرئيةٌ عبر موجاتٍ من السحب السريعة الحركة، أملاً، وننطلق نحو النهر الجليدي من أجل بلوغ أعلى قمةٍ في كتلة أورتلر، جبل تاباريتا (حيث وجدنا عمود لافتةٍ هيكلياً وبقايا كوخٍ سحق تحت وزن الجليد)، والضباب، والريح، والعاصفة قد عادت، ونمضي قدماً رغم كل شيءٍ لأن هناك مجموعاتٍ أخرى قريبةً يرافقها أدلاء، والذين، بفضل الرصد السريع للصدوع والكتل الجليدية، يتمكنون من توجيه أنفسهم وإيجاد الاتجاه الصحيح في هذه الكتلة البيضاء التي التحمت فيها السماء بالثلج، وهكذا نستمر ببطءٍ ولكن بثبات، متوقفين أحياناً عند ما تهدد عنف الرياح بقذفنا بعيداً وبخطف أنفاسنا، ونرتدي ملابس ثقيلة، وقفازاتٍ كبيرة، وأقنعة تزلج، التي، بعد ضربها بآلاف الجسيمات الدوارة، أصبحت تقريباً قشوراً صلبةً من الجليد، ونمضي بوتيرةٍ متعبةٍ عبر الثلج

الحديث الذي تغوص فيه سيقانا حتى الفخذين، مكافحين لإيجاد موطئ قدمٍ صلبٍ على المنحدرات الأكثر حدة، وأخيراً نرى القمة—أو ما يجب أن يكون القمة؛ ليس فقط أننا بالكاد نرى في هذا الطقس، بل كل جزءٍ من النهر الجليدي يشبه كل جزءٍ آخر، وقد اختفت آثارنا في الثلج بالفعل، إذ كانت بضع دقائق كافيةً للعاصفة لمحوها، وحتى الأدلاء الثلاثة في المجموعات الأخرى لا يستطيعون إيجاد طريقهم؛ وبالكاد نستطيع تمييز صورهم الظلية وهم يختبرون الأرض هنا وهناك بفؤوسهم الجليدية محاولين تجنب السقوط في صدعٍ خفي.

ولكن فجأة، يحدث تحول—مشهدٌ لا يمكن نسيانه أو وصفه بالكلمات أبداً، فبعد هبة رياحٍ قويةٍ يتجلى صفاءٌ في كل مكان؛ ورغم أنه لا يكشف السماء أو الأرض بعد، فإنه يخلق جواً أثيرياً وغير مادي، وهذا الوسط تتخلله موجاتٌ صامتةٌ من الضوء، تشبه الأنفاس أو الرعشات، وكأنه كائنٌ حي، وتبدو أشكال أعضاء المجموعات الأخرى وكأنها معلقةٌ

في الهواء، بلا ظل، بلا وزن، ويبدو الأمر وكأن ذكرىً من الماضـــي اليوناني قد دبت فيها الحياة وتظهر لنا: كما في الأســـطورة القديمة، أجســـادٌ أثيرية (pneusomata) تهيم عبر حقول الضـــوء في أراضـــي المباركين والأبطال غير المادية، ويســـتمر ذلك المشـــهد بضـــع ثوانٍ فقط، وبعد ذلك، يتبع المزيد من الضـــباب وهبات الرياح، وأخيراً نعود إلى الأرض، إلى العناصـــر الصـــلبة والجحيمية، إلى الأشـــياء المصنوعة من صلابةٍ قابلةٍ للفساد وإلى أشكالٍ تخضع للميلاد والاضمحلال تحت ضوء النهار الرتيب.

فايس-كوغل؛ بالنســـبة لمن يألفون الأنهار الجليدية، فإن صـــعود جبل فايس-كوغل (٣٨٦٠ متراً)، في حد ذاته، ليس إنجازاً عظيماً، فمن ملجأٍ جبلي إيطالي صـــغيرٍ مبنيٍ على الصـــخور الأخيرة قبل الجليد، نمضـــي إلى النهر الجليدي في انعطافٍ طويلٍ وصـــبورٍ يتيح لنا تجنب المناطق الموســـومة بصدوعٍ ضخمة، ونصل إلى ممر؛ وراءه يكمن الطريق المؤدي مباشرةً إلى القمة، وهذا الطريق يلتف صاعداً منحدراً حاداً

يسهل تسلقه تقنياً نظراً للحالة المواتية للثلج، مما يسمح بمسكٍ ثابتٍ للنعال الحديدية وكذلك المشـــابك وفؤوس الثلج، ومع ذلك، فالتجربة الجديدة هي الهبوط على الجانب النمســـاوي، الذي حدث بطريقةٍ مغامرة، ففي هذه الصحراء البيضاء لم تكن المعلومات المجموعة من خرائطنا مفيدةً حقاً، إذ تحجب هبات الضـــباب القمم عن نظرنا، حارمةً إيانا من نقطةٍ مرجعيةٍ قيمة، وبعد ساعاتٍ من الصعود في اتجاهٍ شمالي، ظننا أننا سنجد أرضاً صلبةً ومساراً جديداً خلف مجموعةٍ من الصـــخور، وما وجدناه بدلاً من ذلك هو بحرٌ من الجليد، تيارٌ هائلٌ متصلبٌ من الجليد، مسطحٌ تقريباً، ليس أبيض بل رمادياً—رمادياً شبه لامعٍ كالرصاص—ممتداً بين ضفتين من الجلاميد والرمال، ســـوداء تارة، وحمراء تارةً أخرى، وحولنا صمتٌ مطبق، عزلةٌ تشبه الصحراء، غيابٌ تامٌ لأي شكلٍ من أشكال الحياة أو الألوان، وغالباً ما يستمد العقل غريزيـاً معنىً غير محددٍ من الكلمات يرتبط بتشـــبيهاتٍ غامضـــة، والكلمات التي تخطر ببالي في هذا المكان هي:

"وادي اللعنة"، ولا أدري لم، وتبدو هذه المنطقة وكأنها مصـــابةٌ بلعنةٍ ما أو بشـــيءٍ لا يمكن إزالته إلى الأبد، وكأن هذه الصـــخور حطمتها الصـــواعق، وقذفت من قممٍ عالية، لترقد أخيراً كأشـــكالٍ مأســـاوية، وكئيبة، وميئوسٍ منها، وكأن هذا التيار المائل من الجليد كان حياً ذات مرةٍ وأصـــبح الآن كتلةً رمادية، غفلةً من الاســـم، ورتيبة، أو ضياءً مدفوناً في صلابةٍ تشبه الرصاص، وقد انطبقت هذه التشـبيهات المضـطربة على عنصـرٍ آخر: اللاتناهي، والخلود؛ فقد كنا نمشـــي لعدة أميالٍ على الجليد الكئيب، آملين رؤية نهايةٍ تلوح، ومع ذلك، يســـتمر الســـيناريو ذاته أمامنا، دائماً نفسه، مثبطاً، بلا تنوع، ونمشي في المشهد ذاته بين ضفتين ملعونتين من الصـخور، وقد كنا نمشـي ونتسـلق لنحو عشـر ســـاعاتٍ منذ غادرنا الملجأ، وبحلول الآن "تقتل" حقائب الظهر أكتافنا وقوتنا تتبدد، ومع ذلك لا نملك إلا المضـــي قدماً عبر "وادي اللعنة" هذا، آلياً، دون أي أملٍ في دعمٍ داخليٍ أو خارجيٍ قبل حلول المساء، وحوالي الغروب نكون

شبه هازين من الإنهاك، لكن الجليد الرمادي ينتهي أخيراً، مولداً تياراً عظيماً من المياه الصفراء والمضطربة التي تبحث عن طريقٍ عبر الصخور اللامتناهية والركام الجليدي، فنتبع هذا النهر وأخيراً، في مكانٍ أعلى على الصخور، نرى العلامة الأولى والوحيدة للوجود البشري: مبنىً خطياً، يقع طرازه في منزلةٍ بين البافاري والحديث، بلون العظام البيضاء أو الأعصاب العارية، وعبر تداعي أفكارٍ عبثي، يذكرني بقصةٍ لـ إدغار آلان بو عام ١٨٤٥، "سقوط منزل أشر"، عن قصرٍ ملعون، ويتبين أن هذا المبنى هو "هوخيوخ-هوسبيز"، أول ملجأٍ جبليٍ نمساوي، وهو مكان راحةٍ ممتازٌ يديره أناسٌ ودودون ومزودٌ بطعامٍ جيد، وتغوص تجربة "وادي اللعنة" ببطءٍ في لاوعيي.

كوخ أوبيرفالدر (غروس-غلوكنر)؛ يهبط المساء بهدوءٍ على النهر الجليدي والصخرة الشبيهة بالجزيرة التي يربض عليها الملجأ، ومن الداخل تأتي أصداء أغانٍ وانعكاسات ضوء؛ وأغامر وحيداً وراء الصخرة، على الثلوج، متبعاً أثراً، في

اتجاه جبل فايسباخ-هورن، وفي بيئةٍ كهذه، من المرجح لروحٍ منفتحةٍ على تجارب جديدةٍ أن تشعر بحنينٍ لا يوصف وتوقٍ عميقٍ لما هو غير محددٍ وعديم الشكل، وهذا المشهد نوعٌ جديدٌ من الصحراء ووجهٌ جديدٌ للصمت، وخلفي تسمح أبخرة المساء المتصاعدة من الوديان بالأسفل برؤية القمم الجليدية فحسب، وتقف هذه القمم، المضاءة بآخر الانعكاسات، طويلةً ومهيبة؛ إنها الأشياء الوحيدة في السماء التي لا تزال متمسكةً بالضوء، وتبدو منزوعة الجسد، قريبةً ونائيةً في آن، كالذكريات، كالأطياف الصامتة، وأمامي يمتد لونٌ رمادي-أخضر يشبه مياه البحر، بالكاد تتميز فيه السماء عن الثلج، والطريق الذي يكاد لا يرى المؤدي للقمة هو الإيقاع الوحيد؛ إنه كأثر الصحراء على روح المرء، عزلةٌ مباركةٌ ومؤلمة، وأتوق لمواصلة المشي، كل شيءٍ بعيد، مبرؤ، ومنسي، ويهبط الليل المبارك علي، فأختبر تبسيط روحي وكل الأشياء، وأخيراً، تبدأ النجوم الأولى تتفتح في السماء فوقي.

١٣.وادي الرياح

بعد كثيرٍ من اللهاث والنفخ، والتصفير والصرير على طول المنحدرات الشديدة، وكأنه لم يكن ليقطع متراً آخر مهما كان الثمن، يصل القطار المصغر من ميرانو أخيراً وسط سحابةٍ بيضاء مجيدةٍ من البخار إلى ماليش، المحطة الأخيرة في الرحلة، ونترجل من القطار ويكون إحساسي الأول بمجرد الخروج من المقصورة المدفأة كمن يغمس فجأةً في ماءٍ مثلج، فالهواء جافٌ للغاية وشديد البرودة، وحولنا في كل مكان جبالٌ عظيمةٌ يكسوها الثلج، وفي الوديان بالأسفل، كتلٌ كثيفةٌ عظيمةٌ من الأشجار، بعضها أحمر-مخضر، والبعض الآخر—الأبعد—بلون معدنيٍ داكن، يكاد يكون أزرق عميقاً، وتبرز قمة جبل أورتلر بعيداً في الخلفية؛ وتبدو سماويةً وأكثر سطوعاً من الجليد، بل تكاد تكون ذات جودةٍ أكثر نفاسة، ومحطة القطار (إن جاز لنا تسمية هذا الكشك السويسري الصغير محطة) شبه مهجورة، وسرعان ما يتفرق المسافرون القلة، وتبدو البلدة مهجورةً كذلك، باستثناء أن

المداخن ترسل نفثاتٍ من الدخان إلى سماء الظهيرة الشاحبة، وتذكرنا الصور العملاقة والأقوال المكتوبة بحروفٍ قوطيةٍ على اللوحات الإعلانية في الساحة الرئيسية بمسرحٍ بعد انتهاء العرض، فنوقف شخصاً مقنعاً خرج للتو من فندق "يونيكورن": "كم تبعد ريشين؟"، "ثلاث ساعاتٍ جيدة"، يجيب، نحتاج لـ "ثلاث ساعاتٍ جيدة" للوصول إلى وجهتنا المنشودة، بحيرات ريشين، إنها الساعة الثانية ظهراً، وانتظار حافلة الغد مضيعةٌ للوقت، فنقرر الذهاب سيراً على الأقدام وشرب كوب شايٍ مستحقٍ عند الوصول، ونتبع طريقاً صغيراً يبدأ عند آخر منازل البلدة وسرعان ما يندمج في طريقٍ كبيرٍ يربط وادي ريشين بالنمسا، وبمجرد أن نصبح في العراء، لم نعد محميين بالجبال الجانبية فوق ماليش، نواجه فجأةً رياحاً شماليةً قويةً بشكلٍ غير متوقع، لا يختبر مثلها إلا في القمم الشاهقة جداً على الحدود السويسرية، وعادةً ما تهب الرياح في هبات، ومع تنوع، وتوقفات، وتسارعات، وإعادات؛ وما نختبره لا يشبه ذلك في شيء، تخيل التيار

المستمر، الثابت، والدائم للهواء الذي تنتجه مروحة، ثم إذا ضاعفت شدته قدر الإمكان وفكرت فيه كجليدي بقسوةٍ وإيلام، سيكون لديك فكرةٌ مجردةٌ عما نشعر به، فوادي ريشين ممرٌ مفتوحٌ تماماً من جانبه الشمالي، ولا تحميه أي سلسلةٍ جبليةٍ هامةٍ في الأعلى، والتيارات الجوية للشمال، التي قد تبدأ بعيداً كبحر البلطيق، يمكنها الاندفاع للداخل بسرعةٍ كبيرة، والمدهش أن هذه الكتلة الهوائية الجبارة المندفعة إلى الوادي صامتة؛ فلا عويل أو صفير للرياح لعدم وجود شيءٍ تتحطم عليه الرياح هناك في وسط الأرض السوداء المتجمدة تحت السماء البيضاء الكبيرة، لا توجد آثارٌ للنبات، لا منازل—فقط قسوةٌ وتحديدٌ معدنيٌ للخطوط في الهواء الجاف جداً، لا يوجد ماء، فقط قنواتٌ جليديةٌ شديدة البياض.

"ثلاث ساعاتٍ جيدة إلى ريشين"، لا أعرف بالضبط كم ساعةً تستغرق، وليس من قبيل المبالغة القول إننا نكافح في

كل بوصةٍ من الطريق ضد هذه الرياح الشمالية التي لا تصدق، والتي تسحق صدرك، وتقطع أنفاسك، وتحرق عينيك، وتحاول بكل طريقةٍ انتزاع معطفك، لقد كنا في عواصف عند تسلق قممٍ شاهقة، لكن هذه تجربةٌ مختلفةٌ كلياً؛ نحن نمشي على أرضٍ مستوية، بلا عاصفة، دون الانخراط في أي عملٍ حقيقي، مع رؤيةٍ ضئيلةٍ أو معدومةٍ بسبب الرياح الجامحة، في وسط مشهدٍ ثابتٍ مقفرٍ يتميز بغياب أي شيءٍ بشري، والجوانب الوحة والمتناقضة لهذا الوضع تمنعنا من العودة، ولكن للوصول إلى هدفنا نحتاج لتركيزٍ حقيقي، ومثابرةٍ لا تتألف من قوةٍ جسديةٍ بل من منهجية، وآلية، وتبلد، وثبات: إنه اختبارٌ حقيقي، وبالنظر إلى كل الأمور لا يختلف ذلك عن مسيرٍ في الصحراء، تحت شمسٍ لا ترحم، عندما لا يتبقى شيءٌ في عقل المرء سوى الإرادة التي لا تلين والتي تبقيه ماضياً بطريقةٍ آلية، وتبدو ريشين، التي يغمرها الغروب، كبلدةٍ مهجورةٍ عشية كارثةٍ عظيمة، أو كبلدةٍ أخليت تحت تهديد وباءٍ غامض،

لا توجد علامات حياة؛ إنه حقاً مشـــهدٌ موحش، وبين الفينة والأخرى، تطير هباتٌ من الثلج وقطعٌ من الجليد من أسـطح المنازل إلى السـماء، ونمضـي قدماً بموقف دوريةٍ عسكريةٍ تستطلع منطقةً تقريباً، وفجأةً نرى المجموعة الرئيسية من المنازل والكنيسة؛ وأبعد قليلاً نرى نوافذ مضاءةً تحت لافتة فندق، ونرى درجاتٍ قصـــيرةً خارج الفندق وباباً ضخماً مصنوعاً من الخشب الأسود؛ وأخيراً نحن في الداخل في بيئةٍ تشـبه عالم "النيبلونغن" (Nibelungen)، تتميز بضـبابٍ دافئٍ مكونٍ من دخـان التبغ والموقـد والكحول، ومن الصـعب تقدير حجم الغرفة؛ فهي مزدحمةٌ بأناسٍ يتحدثون، يهمسون، يلعبون، يشربون، ويبدو المشهد كحشدٍ خياليٍ من الظلال إما معلقةٍ أو راسيةٍ في الضبـاب الدخاني الموسـوم بأضواء، ودواماتٍ زرقاء بطيئة، ومشبعٍ بجميع أنواع الروائح؛ إنـه دافئٌ وحي، كحيوان، وفي وادي الريـاح يعيش النـاس متحصنين في الداخل خلال هذا الجزء من العام.

ماذا علي أن أتذكر أيضاً عن هذه الرحلة على حدود إيطاليا؟ غابات الشتاء، التزلج، البانورامات البيضاء العظيمة التي شاهدناها من القمم، قسوة اثنتي عشرة درجةً تحت الصفر المئوي تحت شمس الصباح المشرقة، ومع ذلك لم يكن أيٌ من هذه الأشياء مميزاً، بل أتذكر تجربة بحيرة ريشين في الليل، صدقوا أو لا تصدقوا، بنينا نادياً ليلياً صغيراً هناك، في منزلٍ يشبه الدير، بناه لاجئون فرنسيون نبلاء في أواخر القرن الثامن عشر، وجد أحدنا "غرامافون"، ويا للدهشة، اسطوانات جاز "فوندر-بار"، وهكذا، حلت مشكلة ما نفعله في الليل، وأشعل أحدهم ناراً كبيرة، وبدلاً من شرب النبيذ شربنا الروم والكرز، رقصنا، وعندما سكرنا بدأنا نناقش الأمور، ثم خرجنا للمشي في ليلةٍ حرارتها اثنتان وعشرون تحت الصفر، وجاء أحدهم بفكرة الذهاب إلى البحيرة، إنه منتصف الليل، حاولوا تخيل لوحٍ هائلٍ من الكريستال الأسود، مصقولٍ كمرآة، يمتد لأميال: هكذا تبدو البحيرة المتجمدة، والقمم الثلجية على جانبي الوادي

والسماء المرصعة بالنجوم بشكلٍ لا يصدق تنعكس في هذا اللوح بوضــوحٍ مغناطيســي؛ مما يجعلنا نظن أننا عالقون بين سرابٍ مزدوجٍ أو شـفافيةٍ مزدوجة، حاولوا أن تتخيلوا، إن أمكن، كيف يكون المضي نحو وسط البحيرة بلا زلاجات، تحت هجوم الرياح الشمالية، وفي حالةٍ جسديةٍ وروحيةٍ من الانتشـاء الصـافي حيث تلعب الكحول، والطبيعة، والسـمو الداخلي أدوارها جميعاً، ومع ذلك، ليس من الممكن لمن لم يختبروا ذلك معرفة ماهية تكســر الجليد تحت الماء، فخلال الليل، وبسـبب انخفاض درجات الحرارة السـريع، يحدث أن تتكسـر طبقات الجليد العميقة المغمورة في مياه البحيرة، وعندما يحدث ذلك، يمكن سماع هديرٍ وضجيجٍ عالٍ يتردد صــداه بشــكلٍ مخيفٍ عبر القشــرة الجليدية للبحيرة بأكملها، وينقله الوادي بصدىً قوي، وهذا لا يشكل خطراً حقيقياً، لأن هذه الكسور لا تصل إلى السطح، ومع ذلك، فالشعور فجأةً تحت قدمي المرء بهديرٍ ينمو إلى دويٍ عـالٍ، تردده الجبال بعد ذلك، يشـبه تقريباً سماع صوت الأرض ذاتها،

يبدو الأمر وكأن هاوية ستنفتح تحت قدمي المرء، هذه تجربةٌ مخيفةٌ حقاً تجمد الدم في العروق كالزلزال، وتستحث يقظة إحساسٍ بدائي، مذهل، ومخيفٍ كامنٍ في دهاليز سحيقةٍ جداً من طبيعتنا، وتفاصيل تلك الليلة محفورةٌ للأبد في ذاكرتي: البرد الذي لا يصدق؛ الليلة الرائعة المرصعة بالنجوم؛ الثلج العاكس، المتلألئ حولنا؛ شعور الإثارة الممتزج بالتوتر الصافي؛ توازنٌ عقليٌ تام؛ والشعور البدائي المفزع الذي ينبعث من عمق البحيرة في الصمت المطبق للوادي، وفي ظروفٍ كهذه يمكن للمرء أن يفهم كيف يمكن، دون أي مبالغةٍ خطابية، الحديث عن لحظةٍ كهذه كلحظةٍ تتجاوز الحياة العادية، وسيظل وادي الرياح والليلة التي قضيناها على البحيرة المتجمدة في ذاكرتي للأبد.

١٣.صعود جبل غروس-غلوكنر

كان الدافع النفسي الذي قادنا لتسلق أعلى قمة نمساوية، غروس-غلوكنر (٣٧٩٨ متراً)، عبر المسار الأصعب (بالافيتشيني-فيغ)، مزدوجاً، أولاً، كانت مجموعتي مدفوعةً لهذه الحملة بدافعٍ داخليٍ للتميز عن أي شخصٍ آخر، والذي يستيقظ فينا بانتظامٍ كلما زرنا أعلى الجبال النمساوية أو الألمانية، فخلال الصيف تصبح هذه القمم نوعاً ما نقاط تجمعٍ لجميع أصناف الناس الذين يتبعون المسار العادي، ومن جانبي، يجب أن أعترف بكوني متخلفاً عن العصر والمثل المعاصرة؛ شخصياً، لا أزال أتمسك وأدافع عن رؤيةٍ أرستقراطية للجبل كمجالٍ لقلةٍ محظوظة، وأعتقد أن تسلق الجبال تمرينٌ نسكيٌ ومسارٌ للتحرر الروحي أكثر منه رياضةً ديمقراطيةً متاحةً للحشود، ومع ذلك، لا أنوي في هذا السياق الجدال حول المبادئ، فإذا سلمنا بأنه شيءٌ جيدٌ ومفيدٌ اجتماعياً للناس من جميع الطبقات الاجتماعية، والأعمار، والأجناس أن يسافروا من المدينة إلى الطبيعة

وأن يختبروا بطريقة طبيعيةٍ مآثر كانت تؤدى عادةً وفقاً لمعنىً مختلف، فمن الأسلم افتراض أن الشعب الألماني يتقدم على جميع الأمم الأوروبية الأخرى، وبترك أي تقييمٍ لهذه الظاهرة جانباً، أود فقط شرح السبب الذي جعلنا نرفض رفضاً قاطعاً فكرة صعود الجبل عبر المسار العادي (بدءاً من كوخ أدلرسروهه والعبور فوق جبل كلاين-غلوكنر)، فقد رأينا أن الشيء الوحيد الذي كان ينقص هذا المسار هو شرطي مرورٍ لتوجيه الحركة على طول مسارٍ أصبح نوعاً من الخندق العمودي مع مرور الوقت، وهكذا، كان دافعنا الأول، الذي حل كأنه رد فعلٍ طبيعيٍ تقريباً، هو الرغبة في أن نكون أقل ما يمكن "برفقةٍ جيدة" وأن نقهر جبل غروس-غلوكنر عبر طريقٍ جديدٍ لا يزال يحتفظ بعناصر العزلة، والتحدي، والمخاطرة، وهنا جاء دور دافعنا الثاني.

بتقليب صفحات الدليل الأكثر شهرةً واقتباساً لهذه المنطقة الجبلية، وجدنا وصف طريق بالافيتشيني مكتوباً بعباراتٍ

مثيرةٍ للجزع تقريباً، فبادئ ذي بدء، صنف كدرجةٍ سادسةٍ من الصعوبة وقيل إنه (ausserst schwierige und gefahrvolle) أي صـــعبٌ للغاية ومحفوفٌ بالمخاطر، وثانياً، لم تجر محاولته إلا مرتين، مرةً في ١٨٨٩ ومرةً أخرى في ١٩٢٣، وقـدر الدليل مدة التسلق بما بين عشر واثنتي عشرة ساعة؛ وهذا يعني إمكانية أن يعلق المرء عند حلول الليل في منتصـــف الجدار الجليدي العمودي إذا حدث تأخيرٌ بســبب ظروفٍ جويةٍ غير مواتية، وثالثاً، لإكمال هذا السيناريو المغري، حذر الدليل القراء من أنه سيكون ضرورياً نحت ما لا يقل عن ألفين وخمسمائة درجةٍ في الجليد!

ورغم أننا في ذلك الوقت لم نكن نعلم أن هذه المعلومات كانت مضللة، فقد اعتقدنا أن هذه الحقائق كانت مخيفةً بما يكفي لإبعاد السياح العاديين الذين يزحمون المســار العادي ولإضفاء هالةٍ من الرهبة أيضاً على صعودٍ شديد التحدي، ومن جانبنا، لم نأخذ هذه التحذيرات على محمل الجد، سـواءً

لأننا كنا نعرف ميل الأدلاء—خاصةً الألمان منهم—للمبالغة، وأيضاً لأن الصعوبات في صعودٍ على جليدٍ نقي تكون دائماً نسبيةً لظروف ذلك الوقت بعينه، وفي هذا الصدد الأخير كان بإمكاننا الرجوع إلى التجربة الشخصية والمحددة لصعود الجدار الشمالي لليسكام الشرقي (الواقع في كتلة جبل روزا)، الذي كان مشابهاً للغاية لطريق بالافيتشيني وكان يعتبر أيضاً صعباً للغاية.

عندما وصلنا إلى كتلة غروس-غلوكنر لم يكن من الممكن أن تكون الظروف الجوية أفضل، فقد تساقطت الثلوج لمدة أسبوعٍ تقريباً فوق ٢٥٠٠ مترٍ وتلت ذلك أيامٌ مشمسةٌ جميلة، وكانت توقعاتنا أنه، مهما كان انحدار وجه الجبل، فإننا لن نواجه جليداً أو طبقةً من الثلج الناعم وغير المتماسك تغطي الجليد (وهو أسوأ سيناريو ممكن)، بل ثلجاً تجمد فوق الجليد، وكنا نأمل ألا يكون هذا الثلج صلباً جداً، فلو كان كذلك، لاضطررنا للصعود بنحت درجةٍ واحدةٍ في كل مرة، ولو كان ناعماً جداً، لما كان متماسكاً بما يكفي

لدعم وزننا، وفي ١٩ أغسطس ١٩٣٤، بدأنا الصعود، الذي، من حيث الصعوبة ومقدار الوقت المطلوب، تبين أنه ليس بالصعوبة التي وصفه بها الدليل.

جرت محاولة الصعود في مجموعةٍ مربوطةٍ تتكون من ثلاثة أشخاص: سيدٌ إيطالي، كارلو روسي دي لوريانو؛ ومواطنٌ بريطاني، السير إدوين غرانت داف؛ وأنا، وفي اليوم السابق، سافرنا إلى كوخ أوبيرفالدر لرصد ملجأٍ جبليٍ صغيرٍ يرسو على نتوءٍ صخريٍ أسود، كجزيرةٍ خارجةٍ من كتلة غروس-غلوكنر الجليدية، ومن هناك رسمت مخططاً للجبل ودرست الطريق الذي كنا سنتبعه بمساعدة منظارٍ قويٍ وجدناه في الملجأ، وقبل أن نبدأ هجومنا على وجه الجبل، اضطررنا للأسف لإضاعة الكثير من الوقت للوصول إليه، فسافرنا عبر بحرٍ من الجليد يقع أمام الجبل ثم عبر باستيرزينغليتشر، وهو نهرٌ جليديٌ متصدعٌ مليءٌ بالكتل الجليدية، فمن ناحية، يتسبب إهدار الكثير من الوقت في

هذا الجزء التمهيدي في أن يكون المرء على جدار الجبل بالضبط عندما تبدأ الشمس في إذابة الثلج، جاعلةً إياه غادراً، ومن ناحيةٍ أخرى، بينما يمكن عبور ما يسمى بحر الجليد بسهولةٍ في الظلام، بالمغادرة من كوخ أوبيرفالدر، أو من كوخ هوفمان الأقرب (وهو ما فعلناه)، لا يمكن قول الشيء ذاته عن الجزء الواقع مباشرةً تحت جدار الجبل، خاصةً في الظروف المذكورة آنفاً، وهذا لأن تساقط الثلوج الغزير يشكل تهديداً مستمراً بتغطيته بالكاد للصدوع والهوات؛ والمرء يحتاج قطعاً للحد الأدنى من الضوء للمضي بدرجةٍ معينةٍ من الأمان ودون الاضطرار لاختبار الثلج في كل خطوةٍ من الطريق.

نتجه نحو اليمين حيث تثبت بعض الصخور المطلة على بحر الجليد وتلٌ من الثلج المتماسك أنها مفيدةٌ لنا، ثم نمضي طولياً، متحركين بشكلٍ موازٍ تقريباً للصدع المحيط بكتلة غلوكنر، وأخيراً نصل إلى نقطةٍ حيث، في بداية طريق

بالافيتشيني، يكون الصدع متكسراً بسبب الانهيارات الجليدية، وفيما يتعلق بالجانب التقني، ليس هناك الكثير ليقال عن هذا الصعود، كما هي الحال مع كل التسلقات على الجليد تقريباً مقارنةً بتلك التي على الصخور، ونجد الجزء الأول بعد الصدع في حالةٍ ممتازة؛ فهو لا يمثل تحدياً خطيراً، بفضل الثلج الذي سقط من أعلى وتراكم، وبينما نمضي، يصبح المنحدر شديداً جداً (خمسةً وستين بالمائة، وفقاً للدليل الذي استشرناه)؛ وسيتطلب الصعود الكثير من الوقت إذا اتبعنا بإخلاصٍ جميع تدابير الأمان المطلوبة، ومن جانبنا، وسعداء لأننا لم نجد نوع الجليد المرهوب، نبدأ تسلقنا بمهاجمة الجبل، أي، بأخذ خطواتٍ سريعةٍ مدعومةٍ بمخاطرةٍ بفؤوس الجليد التي نغرزها للأعلى، نفعل ذلك حتى، بعد استنفاد رشاقتنا وطاقتنا لهذه السباقات القصيرة، نبدأ في حفر ممسكاتٍ ثابتةٍ بفؤوسنا لنتمكن من الوقوف والحفاظ على توازننا—أو على الأقل، بالاستناد إلى الجليد، للتوقف لبضع ثوانٍ لالتقاط أنفاسنا للجولة الصغيرة التالية،

وتسمح لنا هذه الطريقة بتوفير كميةٍ كبيرةٍ من الوقت، فمن ناحية، هي أكثر خطورةً من المضي بوتيرةٍ منتظمة (حيث يتبنى المرء تدابير أمانٍ متبادلة)، لكن من الناحية النفسية فلها ميزة الاحتفاظ بالتوتر وروح الغزو، التي لا يمكن تجاهل تأثيرها على أعصابنا وقوانا الجسدية.

ويأتي الوقت الذي لا يعود فيه المضي بهذه الطريقة ممكناً دون تهورٍ شديد، لأن جدار الجبل يصبح أملس بشكلٍ متزايد، وبعد استنفاد طاقاتنا في تقدمٍ واحد، نخاطر بافتقارنا للقوة لنحت مكانٍ للراحة، بالنظر إلى أن الجليد بحلول الآن لا يمكن القطع فيه بفأس الجليد وحدها، والشمس، التي يرافق صعودها في السماء صعودنا على وجه الجبل تقريباً، تمنحنا بعض العون، إلى حدٍ معين، بتليين السطح الخارجي للجليد، ونحاول التحرك أكثر لليسار، نحو الصخور، لنجد ثانيةً الظروف المواتية للثلج، وللأسف، وراء نقطةٍ معينة، نجد العكس تماماً: ثلجاً حديثاً لم يتجمد وبالنظر إلى الانحدار،

يهدد بالانزلاق وجرنا معه نحو الوادي بالأسفل، وهكذا، بعد تعرجين أو ثلاثة، نتجه عائدين إلى القناة الوسطى، وهذا هو الجزء الأصعب والأخطر في الصعود؛ وفي الوقت ذاته، هذا هو الجزء الذي ترك انطباعاتٍ لا تمحى في نفوسنا.

بكوننا معلقين في منتصف الجدار دون أي فرصةٍ للهروب—محصورين بين الضوء والجليد المعْمي بعيداً عن أيٍ تشتيتٍ أو اندفاع؛ مجبرين على صفاءٍ حديدي، وسيطرةٍ مطلقةٍ على جميع العوامل النفسية والجسدية المطلوبة لخلق توازنٍ يمكن لأي عنصرٍ غير متوقعٍ تعريضه للخطر بسهولة—نجد الجانب الروحي لتجربة التسلق، محمولاً إلى أقصاه، فالشعور بالوحدة في عالمٍ حر، وعديم الرحمة مع قوة المرء وحدها ليعتمد عليها؛ منخرطاً في حوارٍ حميمٍ مع أعمق قوى كيان المرء وأكثرها غموضاً؛ مستيقظاً على بعدٍ نقي، وقاسٍ يمكننا تقريباً من المشاركة في ذلك التسامي واللامبالاة تجاه المجال البشري الذي يبدو أن القمم المهيبة والمشرقة تجد فيه أفضل تمثيلٍ

رمزيٍ لها، وفي ظروفٍ كهذه قد يكون الصعود على الجليد تجربةً أفضل من تسلق الصخور، ففي هذا النوع من التجربة، وبصرف النظر عن الأحاسيس الداخلية المذكورة آنفاً، لدى المرء إحساسٌ مميزٌ آخر—إحساس القدر أو نوعٌ من حب المصير (Amor fati)، فالصخر يقدم دائماً وجهاً واضحاً: إنه صلب، ودائماً هو نفسه، ولقهره، ما يلزم هو القوة، والرشاقة، والقدرة على اختيار واستخدام المسكات الصحيحة، التي نادراً ما يمكن اختبارها مسبقاً، وعلى النقيض، يمكن للجليد أن ينهار في أي وقت، وحينها يستحيل عدم دمج فكرة تسليم المرء نفسه للقدر كعنصرٍ حيٍ في أفكاره، ليصبح واحداً مع مصيره المجهول، بالنظر إلى أن المرء لا يأخذ مئات، بل آلاف الخطوات في جدار الجليد المنحدر، الذي قد ينزلق أو ينهار لأدنى سبب، فإذا تداعت سنتيمتراتٌ أو حتى مليمتراتٌ من الجليد، فذلك يكفي لجعلك تنزلق ويقذف بالمتسلق سيئ الحظ إلى الهاوية.

في هذا النوع من الصعود، ليس من الممكن التسلق خطوةً بخطوةٍ وكسب موطئ قدمٍ ثابت (وليس فقط الجزء الأمامي من فأس المرء)، دون استغراق وقتٍ مبالغٍ فيه، ومع ذلك، نحس الأمان الذي يتجلى، مصحوباً بصفاءٍ غير عاديٍ للفكر والحركة، له جودةٌ تكاد تكون فوق بشرية، فإذا كانت صعوداتٌ كهذه تتركنا، فيما يتعلق بأي مساعدةٍ من الخارج، وحيدين مع أنفسنا، فإنها في الوقت ذاته، فيما يتعلق بالبعد الداخلي، تربطنا بشيءٍ أعظم من أنفسنا، وهذا فعلٌ يرتبط بطريقةٍ عميقةٍ ومحولةٍ بالقدر، المفهوم كقانونٍ أسمى يرتب مسبقاً بطريقةٍ مناسبةٍ علاقات القوى الغامضة للأشياء بتلك الخاصة بجميع الكائنات الحية، ويمكننا القول تقريباً إن هذه المعاني، كما تنبع من تجربة الجليد والجبال العالية، تجد تعبيراً لاواعياً وصامتاً في صورة الصليب العظيمٍ المغروس على قمة جبل غروس-غلوكنر: إنه ثابت، مصنوع من قضبان الحديد، ومغطىً بقشرةٍ من الجليد، يكاد يكون

الرمز الشامل لصلابةٍ كونية، وللتفاني القرباني، وللقدر وللتجلي.

وفي نقطةٍ ما تتغير وتيرة الصعود، فبسبب شمس الظهيرة الحارة بشكلٍ خاص لا يمكننا الاستمرار في الاقتراب من مركز القناة الجليدية دون خطرٍ جسيم، إذ تبدأ شظايا الجليد والصخر بالسقوط من أعلى، خارقةً الهواء كالرصاص؛ علاوةً على ذلك، هناك انزلاقاتٌ ثلجيةٌ صغيرةٌ قد تسبق انزلاقاتٍ أكبر قادرةً على جرنا لأسفل، وبعد بعض التعرج نقرر التحرك نحو اليسار، نحو خط ما يسمى "نورد-غرات"، وهو سلسلةٌ من الصخور السوداء، وهنا نواجه المشكلة ذاتها، أي مناطق من الجليد الأملس جداً، والصلب، قريباً من الصخور، ولكن مع ميزة الممسك الموثوق الذي يقدمه الصخر نفسه بين الفينة والأخرى، وتقودنا هذه السلسلة مباشرةً إلى "أوبير غلوكنرشارته"، وهو سرجٌ صغيرٌ يمكن رؤيته بين أعلى قمتين، وهنا ينتهي طريق بالافيتشيني، مندمجاً

مع المسار العادي في عرفٍ من الجليد بعرض قدمٍ واحدة، مع الهاوية الفاغرة فاهها إلى اليمين واليسار، ومع ذلك يحمل آثاراً عميقةً وموثوقةً جداً خلفها المرور المستمر للناس، وبعد هذا العرف نصل بسرعة للقمة بتسلق بعض ألواح الصخر التي ثبتت عليها حبالٌ وأوتادٌ معدنية، وعلى القمة نجد الحشد المعتاد الموجود في الملاجئ الجبلية: أناساً مجهزين بأدلاء، وحبال، وكاميرات، ومناظير، وتساعد الأخيرة في كشف الآثار التي تركناها على الثلج على طول المسار المذهل الذي اتبعناه طوال الطريق إلى هنا.

بعد مغادرة هوفمانشوتيه في الرابعة صباحاً، وصلنا أخيراً للقمة في الرابعة مساءً، ومع ذلك، قضينا جزءاً كبيراً من ذلك الوقت في الهبوط من ذلك الملجأ إلى مستوى بحر الجليد ثم عبور النهر الجليدي حتى الصدع الأخير، وبالنظر إلى الظروف التي واجهناها، لا أعتقد أن وسم "صعبٌ للغاية" المطبق على هذا الصعود صحيح، رغم أنه بالفعل

خطيرٌ وشــــديد الانحدار، فنحت الدرجات في الجليد ضــروريٌ حقاً فقط في بعض الأجزاء، شــريطة أن يكون المتســلق موهوباً بالرشــاقة، والشــجاعة، والقدرة على قياس حركاته، وشــريطة ألا ينوي المرء على هذا الأســاس تحويل الصعود إلى عملٍ مضنٍ من أجل الحصول على أقصى قدرٍ من الأمان، ومرةً أخرى، الأمان على هذا النوع من الجدران الجبلية، المعرض للعناصــــر من البداية للنهاية، هو دائماً شيءٌ نسبي.

١٤.تأملاتٌ في القمم

مون بلان، يوليو، نصـــعد لعدة ســـاعاتٍ طويلةٍ من ظلمة الوادي إلى نور القمم، فنســـافر من غابات التنوب المظلمة والكثيفة الشـــبيهة بغابات "النيبلونغن" التي يكتنفها ضـــبابٌ كثيف، عبر المنطقة العليـا المغطـاة بـالصـــخور والركـام الموحش، وأخيراً عند الفجر نصـــل حافة النهر الجليدي السفلي، ومن بعيد، تبدو هذه المنطقة، كما يوحي اسمها (بحر الجليد)، كجسمٍ هائلٍ من الماء تجمد وتحول إلى كتلةٍ مسطحةٍ وموحدة، وعن قرب، ولكونها متقاطعةً باستمرارٍ مع صدوعٍ وكتلٍ جليدية، فهي تشبه تقاطعاً صاخباً لأمواجٍ بيضاء مزرقةٍ وبيضـاء رمادية، توقفت ديناميكيتها وتصـلبت سحرياً، ونعبر هذا البحر الأبيض الغريب، الذي تبرز منه قممٌ وحواف داكنةٌ لصخورٍ مكسرةٍ تشبه المضائق البحرية، تاركين خلفنا الضـباب الأخير الذي لا يزال يغطي الوديان، ونمضـي فوق جســـور، وهاوياتٍ من الجليد، وصـــعوداً لجدرانٍ جبلية، عاملين بفؤوســنا الجليدية، مســتخدمين الحبال والأشــرطة،

بينما يبدأ ضوءٌ مشعٌ ساطعٌ بالانتشار حولنا، ونمشي فوق بعض الجدران الصخرية القصيرة والشديدة الانحدار ثم فوق بعض المنحنيات الجليدية، وأخيراً نصل القمة.

نحن نقف عند الحدود، وحولنا، أفقٌ دائري: بحرٌ مؤلفٌ من سلاسل جبليةٍ عديدةٍ متتالية، صخريةٍ تارة، وجليديةٍ تارةً أخرى، والتي بسبب صفاتها المتباينة ومسافاتها المختلفة، تتخذ كل تدرجٍ لوني حتى تضيع في الأفق البعيد، ذائبةً ومانحةً إحساساً باللانهاية، وغير ماديةٍ كالأطياف، تبرز أشكال قممٍ أخرى بعيدةً جداً وكأنها تطفو في جوٍ لؤلؤي، إنه وقت المرتفعات الشمسية والعزلة العظيمة، وبعد هذه الساعات الطويلة، التي تغلبت فيها إرادتنا العنيدة على التعب، والقصور الذاتي، ومخاوف الجسد اللاواعية، تتلاشى ذكرى كل همٍ ونشاطٍ لحياة السهول كصدى، وعلاوةً على ذلك، يستقر حسٌ مختلفٌ بالذات ويصبح من الصعب بشكلٍ متزايدٍ تماهي المرء مع تلك القشرة الصلبة، والمغلقة،

والزائلة، التي هي بالنســـبة لمعظم الناس "الأنا" التجريبية، ومع ذلك، فهذه التجربة ليســـت غرقاً صـــوفياً أو شـــعوراً عاطفياً بالاستسلام، وحتى الغنائية (Lyricism) هي شيءٌ يجد مكانه المناســـب في الدوائر الأدبية بدلاً من هنا في الأعلى، فهنا، حيث لا يوجد إلا الســماء وقوىً حرةٌ ونقية، تشـارك الروح في نقاءٍ وحريةٍ مماثلين، وبهذه الطريقة يبدأ المرء بفهم ما هي الروح حقاً، وتدرك الروح كل هذا، وأمام العظمة الهادئة والمنتصـــرة، تختفي كل العاطفية، والنفعية، والبلاغة البشـــرية، وهنـا، مـا لـه في عـالم الروح طـابع النقـاء، واللاشـخصـــية، والقوة يجد نظيره في المرتفعات الجليدية، والصـــحاري، والســهوب، والمحيطات، ونختبر نفس كل ما هو واســـعٌ كقوةٍ داخلية للتحرر، وهنا في الأعلى على هذه القمم، وراء التي يكمن بلدٌ آخر—ومن تجارب مماثلة—يمكن للمرء أن يدرك حقاً سر ما هو "إمبريوم" (Imperium) بأسمى معاني الكلمة، فالتقاليد الإمبراطورية الحقيقية لا تصـــاغ عبر مصـــالح خاصـــة، أو عبر هيمنةٍ ضـــيقة الأفق، أو عبر "أنانيةٍ

مقدسة"؛ فتقليدٌ كهذا لا يتشكل إلا حينما تستيقظ دعوةٌ بطوليةٌ كقوة لا تقاوم من أعلى وحيثما تحركها إرادةٌ للمضي قدماً، قاهرةً كل عقبةٍ ماديةٍ أو عقلانية، وهذا، في النهاية، هو سر كل نوعٍ من الفاتحين، ولطالما أدرك الفاتحون العظام في الماضي أنفسهم كأبناء القدر، كحاملي قوةٍ كان عليها أن تظهر نفسها والتي كان يجب التضحية بكل شيءٍ آخر أمامها (بدءاً من ذواتهم، وتفضيلاتهم، وملذاتهم، وسكينتهم)، وهنا في الأعلى، يصبح كل هذا جلياً، ومباشراً، وطبيعياً، والعظمة الصامتة لهذه القمم المهيمنة، التي بلغت بمخاطرة أهوالٍ عظيمة، توحي بصمت فعلٍ كوني، فعلٍ ينتشر عبر عرقٍ محاربٍ في أرجاء العالم بالنقاء ذاته، وحس المصير ذاته، والقوى الأولية ذاتها كالفاتحين العظام؛ وهكذا، وكأنه من نواةٍ متأججة، يشع ضياءٌ ويسطع، وأعتقد أن القوة الكامنة وراء معجزة الإمبراطورية الرومانية لم تكن مختلفةً عن هذا، ففي ضياء ما قبل الظهيرة الصامت، تستحضر الدورات البطيئة والعالية جداً للصقور فوقنا رمز الفيالق

الرومانية—النسر—في أسمى وأنبل تمثيلٍ له، كما أتذكر أكثر المقاطع إشراقاً في كتابات قيصر التي لا يجد المرء فيها أثراً للعاطفية، ولا تعليقاتٍ بليغة، ولا صدىً للذاتية، بل عرضاً نقياً للحقائق، ولغةً بسيطةً لوصف الأشياء والأحداث، وأسلوباً يشبه المعدن اللامع، تماماً كالفتوحات العسكرية لهذا البطل الأسطوري للعالم الروماني، وأتذكر أيضاً الكلمات المنسوبة لقسطنطيوس كلوروس، الكلمات التي تكشف بشكلٍ كبيرٍ الدافع الخفي وربما اللاواعي للتوسع الروماني، فيقال إن هذا القائد العسكري، جامعاً تقاليد غامضة، ارتحل بفيالقه حتى بريطانيا، ليس لأداء مآثر عسكريةٍ أو من أجل الغنائم، بل لاكتشاف المكان حيث "لا ينطفئ النور أبداً" ولـ"تأمل أبي الآلهة"، مستبقا بذلك الحالة الإلهية، التي، وفقاً لمعتقدٍ رومانيٍ قديم، كانت تنتظر الأباطرة والقادة العسكريين بعد موتهم، وقد كتب ف. نيتشه: "حياتنا وسعادتنا تكمن وراء الجليد، والشمال، والموت"، وعبر الرمز وبصيغ تنبؤاتٍ غامضة، يقودنا هذا التقليد لفهم المعنى

الكامن لما يمكن تسـميته بالروح الفيلقية الرومانية، فهذه الفيالق من رجالٍ من حديد، المتسـمين بالرباطة، والقادرين على أي انضباط، انتشرت عبر العالم دون سببٍ وحتى دون خطةٍ محددةٍ مسـبقاً حقاً، بل طاعةً لدافعٍ متعال، ومن خلال الغزو ومن خلال التحقق الشـامل الذي أنجزوه لروما، أدركوا بشكلٍ غامضٍ نذير ما لم يعد بشرياً، نذير تلك الأبدية (Aeternitas) التي أصـبحت متصـلةً مباشـرةً بالرمز الإمبراطوري الروماني القديم.

تخطر لي مثل تلك الأفكار بقوة عجيبة في هذا الزمان وهذا المكان، وكما ترى الأضواء المتناثرة في السهول ليلا من مكان مرتفع حتى أبعد الآفاق، كذلك تطفو في ذهني فكرة وحدة عليا غير جسـدية للجبهة الخفية لكل أولئك الذين يقاتلون، رغم كل شـيء، في أجزاء مختلفة من العالم المعركة ذاتها، ويقودون الثورة ذاتها، ويحملون التقليد غير الملموس ذاته، تبدو هذه القوى مشـتتة ومعزولة في العالم، ومع ذلك فهي مترابطة حتما بجوهر مشترك يهدف إلى حفظ المثل المطلق

للإمبريوم والعمل لعودته، سيحدث هذا بعد أن تغلق دورة هذا العصـــر المظلم، عبر فعل عميق وغير ظاهر، بحكم كونه كثافة روحية خالصـة لا تتأثر باضـطراب البشـر، وأهوائهم، وأكاذيبهم، وأوهامهم، وانقســاماتهم، ويرمز لهذه الكثافة بالقوة الهادئة والتي لا تقاوم لهذا الضــوء الذي يســطع فوق القمم الجليدية، في هذه المرتفعات، تدب الحياة في الرموز وتتكشـف المعاني العميقة، وثمة دائما لحظات، وإن ندرت، تتلاقى فيها العناصــر الفيزيائية والميتافيزيقية ويلتحم الظاهر بالباطن، مشــكلا دائرة مغلقة: والضــوء الذي ينبعث منها لحظيا هو بالتأكيد ضوء حياة مطلقة.

١٥.عاصفة على جبل روزا

حين افتتح الكابل الذي يصل جبل سيرفينو بالنهر الجليدي في بلاتو روزا (٣٥٠٠ متر)، كانت الظروف مثالية لأولئك الذين يحبون الجبل حقا ويمقتون تدنيسه السياحي، وبما أن هذه المنطقة تتاخم الحدود السويسرية، لم يكن الوصول للمحطة النهائية للكابل متاحا إلا بتأشيرة خاصة، آنذاك، لم يكن الملاذ الدنيوي، والترفيهي، والرياضي الزائف لأولئك الذين جعل الجبل متاحا لهم وكأنه رحلة رخيصة بالمصعد، قد وجد بعد، كنت بصحبة دليل ولم يساعدنا ذلك الكابل إلا في بلوغ نقطة انطلاق لا وجهتنا النهائية، إذ كانت نيتنا عبور الأنهار الجليدية والصخور من بلاتو روزا إلى مجموعة جبل روزا.

هذا العبور طويل جدا، لكنه ليس عسيرا للغاية إذا كان الطقس صحوا وعرف المرء كيف يوجه نفسه، إن المضي وسط مشهد طبيعي بدائي كهذا يفعل في الروح فعل التحرر، هنا يكشف المنظر تارة عن ثلوج وتارة عن صخور

مكسرة سوداء أو مخضرة، مع مساحات هائلة من الألواح والصخور المكدسة وكأنها بقايا كارثة بدائية، نهبط لبرهة عبر مسار مرتفع على حافة واد، فتتأمل عيوننا مجددا المشهد المرحب وغير المعتاد للحقول الخضراء والأشجار، ثم نصعد ثانية، ونبلغ ممرا تشير فيه آثار الأقدام والعلامات الحمراء على الحجارة إلى اتجاه ملجأ سيلا الجبلي على جبل روزا، أعرف هذا الاتجاه جيدا، لذا أصاب بالحيرة حين ينتهي المسار فجأة، وبشكل سحري تقريبا، فلا علامات، بل صخور عالية وانهيارات أرضية نحو النهر الجليدي بالأسفل.

لقد حل المساء، ونحن على ارتفاع ٣٠٠٠ متر تقريبا وقد مشينا منذ الفجر، ومن العبث محاولة البحث عن آثار المسار، وأخيرا، نميز بالكاد مسارا على النهر الجليدي السفلي، فنهبط لتلك البقعة، ثم نقرر اتباع المسار، واثقين بحسن طالعنا، وسرعان ما يصبح كل أثر تال، في الظلام، مرجعنا الوحيد، إنها العاشرة مساء تقريبا حين نبلغ الملجأ، وهناك

نكتشف سبب حيرتنا، ففي العام المنصرم انزلقت قطاعات ضخمة من الجبل، وخلال الليلة التي قضيناها في الملجأ، الراسي على الصخر، كنا قلقين للغاية: إذ بدا وكأن الملجأ يهتز مع الصخر، لقد دمر المسار القديم.

في الصباح التالي ما زلت راغبا في عبور ما يسمى التوأمين (كاستور وبولوكس) مرة أخرى، وهما قمتان يبلغ ارتفاعهما نحو ٤٢٠٠ متر، يجمعهما عرف جليدي، هذا العبور في حد ذاته ليس صعبا، رغم أنه قد يصبح كذلك بسبب الطقس وحالة الجليد، بمغادرة سيلا، يتعين علينا عبور ما يمكن تسميته دون مبالغة بـ "الجحيم الأبيض" (حين تسطع الشمس بكامل قوتها)، وهو واد شاسع من الجليد الثلجي بانحدار طفيف، محاط بصدوع، حيث تكون انعكاسات الشمس والحرارة غالبا لا تطاق في هذا الهواء الرقيق جدا، ثم، بعد معالجة الجانب الشديد الانحدار للقمم، نبلغ عرف القمم، وما يلي ذلك هو ساعتان من الأعراف الجليدية، مع صدوع كثيرة عن اليمين واليسار، وهذه الأعراف رقيقة جدا

أحيانا لدرجة أن المرء يضطر للمشي دون أي شيء يستند إليه، موازنا نفسه على الجزء الأوسط مع الهاوية على كلا الجانبين، ولا توجد صعوبات إلا حين تتشكل قطاعات من الجليد الصلب جدا بسبب الرياح الشمالية، وحينها نضطر لنحت درجات صغيرة بفأس الجليد، متناوبين لئلا تنفد طاقتنا، وبغض النظر عما إذا كان المرء وحده أو مع شخص آخر، فإن أي تدبير للأمان هو وهم محض، فالطريقة المعتادة، التي تتمثل في التوقف، وغرز فأس الجليد لأقصى عمق ممكن، وتمرير حبل عبره ليكون الرفيق مربوطا بأمان، لا يمكن استخدامها، لا يمكن فعل هذا على جليد نقي؛ والارتباط بحبل لا يمثل سوى تصور للأمان، والحقيقة هي أنه لو سقط أحدنا، لجر الشخص الآخر سيئ الحظ معه، لكن عادة لا يكون التوأمان بهذه الفظاعة، والمكافأة على الصعود الشاق هي بانوراما رائعة حقا، بل مجيدة، لبحر من جبال الألب وقمم كانتون برن السويسري.

لا تعرض رحلتنا صعوبات كبيرة، وبحلول الساعات الأولى من بعد الظهر نكون قد عدنا للملجأ، وبعد قليل يتغير الطقس، وتختفي خطوط القمم وسط هبات الضباب، وخلال الليل ينقلب الطقس سيئا للغاية، ومع ذلك، في الصباح التالي يسطع صفاء مشرق جديد، وفي ذلك الضوء نرى من مسافة بعيدة، على الجزء السفلي من النهر الجليدي، رجلا يتحرك في خط متعرج، يسقط وينهض ثانية مثل السكران، ولا يستغرقنا الأمر طويلا للحاق به، إنه مضرج بالدماء في أجزاء مختلفة من جسده ويبدو كشخص يهذي، وهذا ما علمناه.

في اليوم السابق، كان شابان، وشابتان، وهو قد حاولوا عبور التوأمين بعدنا ببضع ساعات، فباغتهم الطقس السيئ على مجموعة القمم، وبسبب انعدام الرؤية أصبح الوضع يائسا سريعا لأن كل شيء يعتمد على تحديد النقطة الوحيدة التي تؤدي للهبوط إلى الجزء السفلي من النهر الجليدي، على

الجانب الإيطالي من الحدود، لم يتمكنوا من العثور على تلك النقطة وعلق الخمســـة هناك عند ارتفاع ٤٢٠٠ متر، يمكن للمرء تخيل كيف تكون ليلة تقضـــى هناك، مع الطقس السيئ والرياح التي تهب من الشمال، دون العثور على أي مأوى، حاول هؤلاء الخمســـة العثور على ملجأ خلف قطعة من لوح بارز، متكدسـين معا على سـطح زلق صـغير، مع الهاوية على كلا الجانبين، ومع ضـــوء النهار المبكر كانت إحدى الفتاتين قد ماتت (لقد تسلقتا بسراويل قصيرة!)، وقبل أن يصفو الجو، غادر الشابان، محاولين يائسين العثور على طريق للأسفل، وبقي الشاب الثالث مع الفتاة الثانية، وإذ انزلقت في حالة شبه واعية، ظن أنها ستموت، لابد أنه كان هناك رابط عاطفي ما بين الاثنين؛ إذ عزم الشاب على إنهاء حياته وألقى بنفســه في الهاوية، ومع ذلك أثبتت هذه الحركة أنها خلاصه، فسقوطه أحدث انهيارا ثلجيا صغيرا لثلج ناعم حمله طوال الطريق للأســفل، سـالما تقريبا، إلى النهر الجليدي الســفلي، كان هذا هو الرجل الذي يتحرك

بتعرج في الثلج، نازفا، الفتاة الثانية في الأعلى لم تمت، نقلت للملجأ وهي نصف هذيان، لكن لحسن حظها نجت، أما بالنسبة للرجلين، فقد سقط أحدهما في صدع وكسر ساقه، وتمكن الآخر من الوصول للوادي وطلب المساعدة.

في هذه المناسبة لا يسعني إلا التفكير في مدى كون كل شيء، في هذه القمم الشاهقة، بيد القدر، بعد ساعتين، كان يمكن أن نكون نحن في مأزق كهذا، وماذا عساي أن أقول حين يتسلق شخص جدرانا جليدية عمودية تقريبا، حيث لو تداعى سنتيمتران أو ثلاثة لكان ذلك كافيا لسقوطه وموته؟ ومع ذلك قد يكون هذا أحد أعمق جوانب تجربة تسلق الجبال: نوع من حب القدر، لتوحيد إثارة المغامرة بالخطر، وللاستسلام للثقة بأن ما في قدرنا هو خارج السيطرة البشرية.

الجزء الثالث: (الملاحق)

الملحق أ: فنان المرتفعات: نيكولاس روريتش

ذاع صـــيت فن نيكولاس روريتش في جميع أنحاء العالم، ففي الولايات المتحدة، البلد الذي توجد فيه احتكارات حتى في المجال الفكري، احتكر أناس معينون الجزء الأكبر من العمل الفني لروريتش؛ وعبر متحف جمعية روريتش، والمؤتمرات، ومراجعة فاخرة (ذا آرتشـــر)، يحاولون خلق "حركة" حول شخصية هذا الفنان.

في الواقع، روريتش، وهو رسام، لا ينوي حصر نفسه في الرسم وحده، فمن خلال لوحاته ونشاطه الأوسع (حيث نظم قصائد أيضا، وكتب مقالات، ونشر حسابات لرحلاته في آسيا)، يهدف أولا وقبل كل شيء لنشر حس بنظام أعلى للواقع في العالم الحديث.

عند النظر في لوحاته، يجب أن نستنتج أن سمتها الرئيسية هي تصـوير الطبيعة -بوسـائل بسـيطة نسـبيا، رغم أنها لا تفتقر لأســلوب زخرفي معين- بمصــطلحات توقظ حسـا غريبا بالباطنية والتحرر تقريبا.

لا ينبغي تفسـير هذا عبر شـيء ذاتي وخيالي يضـيفه فن روريتش ويفرضـه على الواقع، بل، وقبل كل شـيء، عبر قوة كامنة في طبيعة الموضـوعات التي يتعامل معها، ويمكن توضـيح ذلك بمجرد القول إن موضـوع روريتش المتكرر هو الهيمالايا، الطبيعة الجبارة والمتحولة لسـلسـلة الهيمالايا، بمرتفعاتها، وقممها المسببة للدوار، وهاوياتها، وصمتها الذي لا يسمى، وصفائها السماوي.

روريتش، الروسـي المولد، سـافر مرارا لممرات الهيمالايا ومنغوليا الغربية، بمفرده وعلى رأس بعثة، وعاش هناك غالبا بصـحبة اللامات، لكي ينفذ بأعمق ما يمكن في تقاليدهم السحرية والميتافيزيقية، التي يبدأ فيها الفيزيائي والميتافيزيقي، الحقيقي وغير الحقيقي، في الاندماج في النمط ذاته، لذلك، فإن روح الهيمالايا هي التي تحدثنا عبر لوحات روريتش؛ وهذه الروح، كما قلت سـابقا، تنجح في إيقاظ حس قديم بالذات وبالأشياء لدى من يستطيع استقبالها حقا، إحساس

بدائي وقوي طمر في اللاوعي بسبب الحياة القلقة والسجينة للعالم الغربي الحديث.

قد ألمحت لظروف خاصـــة يبدأ فيها الحقيقي وغير الحقيقي، الداخلي والخارجي، الموضوعي والذاتي في الاندماج في واقع واحد، يحدث هذا تلقائيا في المرتفعات العظيمة (فوق ٤٠٠٠ متر)، ســواء على القمم أو، شــريطة امتلاك المرء لقدرة معينة من التركيز الروحي، على متن طائرة، قد يحدث أنه، نظرا لاســتعداد معين لوعي المرء، تبدأ الإدراكات في فقدان ماديتها، وتكتســب خصــائص انعدام الوزن، واللامادية، وضـوء الصـباح التي لا يمكن وصـفها بشـكل كاف لشخص لم يختبر هذا قط.

في حالة من شبه الانتشاء، الذي لا يسبب بلادة بل صفاء أعلى، تحدثنا الأشياء بطريقة لم نشك فيها من قبل، لاحقا، ما يحدث هو تكشـــف ديناميكي لملكة الخيال، التي تتفاعل مع الحواس، مترجمة الإدراكات هنا وهناك لصـور لها طابع رمزي، مثل طابع الأحلام؛ وهذه الأساطير تجد مكانها في

نمط وعي اليقظة، ويبدو أن هذا يحدث في التبت بطريقة بارزة: فهناك عقلية يمكن القول فعليا إنها المجال المدائم لحالات مماثلة، والتي تحتوي سر العديد من التقاليد الغريبة والتي، عند رؤيتها من الخارج، تبدو خرافة محضة.

إن القدرة على فهم هذا، مهما بدا غريبا، ضرورية لفهم فن روريتش في كل عناصره: هذا فن مرتفعات ثلجية ومخلخلة، حيث تفقد الحساسية والهواء ماديتهما وينقلان في جميع الأوقات حس الشفافية والصمت الألبي، وبطريقة ثابتة تقريبا نرى في مناظره الطبيعية ظهور الأساطير والرموز: أشكال زهاد في تأمل عميق؛ نيران سحرية؛ أشكال أصنام؛ أطياف عنصرية؛ وانعكاسات داخلية غريبة وغير طبيعية للضوء تظهر في لوحاته في الخلفية وراء بحار من الوديان والألب؛ ألب في كل مكان، على مد البصر، وهذا لا يحمل قيمة تراكب خيالي مع الواقع، ففي بيئة كالهيمالايا يمكننا القول إن الأسطورة تصبح جزءا من الواقع، بطريقة ما تكمل الأسطورة الواقع، تضفي عليه طابعا باطنيا وتكمله بغرض

يشف فورا من تلك الأشكال، والرموز، والأضواء التي لا يعود بوسع المرء القول ما إذا كانت داخل المرء أو خارجه؛ أو ما إذا كانت أضواء أشياء أو إشراقات روح، أو كليهما في آن.

أولئك الذين كانوا في هضاب التبت العظيمة، دون الانشغال بالاستكشاف أو بكونهم جزءا من بعثة ذات أهداف محددة، يمكنهم الشهادة على هذا الحس، الذي ينبض بالحياة حين يتم النفاذ لروح الديانة التبتية، وأشكال روحانيتها وسحرها التقليدي، روريتش هو الغربي الأول (شريطة أن نسمي الروسي غربيا) الذي تمكن من التقاطه والتعبير عنه عبر اللوحات، شاعرا به في الوقت ذاته كشيء يتجاوز مجرد الفن ويتجاوز الإحساس الجمالي البسيط والخاص، لأنه يميل ليتحقق كحس بالحياة ذاتها، ولهذا السبب تتميز لوحاته جوهريا بطابع الطريق: طريق نحو شيء متعال، بالمعنى التكاملي للكلمة، وبالإشارة لا لتجريد بل

لتجربة حقيقية، وأعتقد أن شيئا ما لا يمكن أن يسمى فنا حقا إلا حين يرتقي ليحمل قيمة كهذه.

تقودنا الهيمالايا لنقاء غير بشري، لنفس غير بشري: "أمتار كثيرة فوق سطح البحر - ولكن أمتار أكثر فوق الرجال العاديين!" كتب نيتشه عن سيلس-ماريا، هذه القمة، تماما كأعلى جبل إيطالي (أتذكر المنظر الليلي للصحراء البيضاء من كابانا مارغريتا على جبل روزا) تعيد ربطنا بطبيعتنا الفطرية والكونية، التي هي ذاتها طبيعة القوى العنصرية للأرض، التي طبع نقاؤها وهدوؤها القوي على القمم الجليدية والمشرقة وكأنها قمم مطلقة وغير مادية، أو عقد إيقاعية مغناطيسية في حبكة الكل العظيمة.

ولهذا السبب يمكننا أن نلمح في فن روريتش شعاعا من التحرر، التحرر الأصدق.

الملحق ب: الفن والرمز في مقر الثلوج

السمات المحددة لأي حضارة تقليدية عظيمة هي التعاون والوحدة، ففي هذا النوع من الحضارة لا تتشظى مظاهر الحياة المختلفة لمجالات منفصلة بل تتجمع حول المحور ذاته وتتخللها، بدرجات متفاوتة، المعاني الروحية والمتعالية ذاتها، يصبح الخارجي رمزا للداخلي؛ والمرئي رمزا لغير المرئي، ويكتسب عالم العمل نفسه معنى طقسيا ولا يمكن تبريره إلا بهذا النحو، لم تكن "الثقافة" في العالم التقليدي تمتلك الطابع المستقل والعلماني المحض الذي اكتسبته في أزمنة حديثة نسبيا؛ ففي ذلك السياق، ظهرت الثقافة كنظام من المقاربات التي كانت تهدف لاستجلاب التحول الافتراضي أو الحقيقي لما في الإنسان مما يتجاوز ذاته، انطبق هذا على الفكر وكذلك على الأخلاقيات البطولية التقليدية، وعلى العلوم المختلفة، وعلى الفن نفسه، ففي حضارة من النوع التقليدي، لا يمكن للفن أن يكون أي شيء سوى فن ديني، بالمعنى الأسمى، لا التعبدي فحسب، للكلمة، ولا

يمكن للنفسانية والنرجسية الجمالية لما يسمى بالمؤلف (ناهيك عن الطبيعية أو الواقعية المدنســـة) أن تجد أي مجال في حضارة كهذه.

تذكرت هذه الأشــياء حين كنت أقلب صــفحات منشــور رائع للأكاديمية الإيطالية تناول بعض جوانب فن واحد من أكثر أنواع الحضــارة تقليدية، ألا وهو الفن الهندي-التبتي (انظر ج. توتشــي، إيندو-تيبيتيكا، روما، ١٩٣٣)، وهذا المنشور دراسة مكرسة للــ "مكود رتين" (mc'od rten) والـ "تسا تسا" (ts'a ts'a)، الأولى هي آثار "مقر الثلوج" المهيب (معنى كلمة هيمالايا) التي تصــطف على طول دروب التبت، وتوجد هذه الآثار أحيانا معزولة، وأحيانا في مجموعات أو متصــلة ببعضــها بجدران حجرية منخفضــة تحمل نقوشا مقدسة، والــ "تسا تسا" صور صغيرة مصنوعة من الطين، تمثل أشكالا ورموزا إلهية، والمقصود منها في الغالب أن تقدم طقسيا من قبل عابر السبيل كبديل للــ "مكود

رتين" ذاتها، أو لتؤخذ إليها، لأن "مكود رتين" تعني حرفيا "وعاء، أو دعامة، القرابين".

"مكود رتين" "النزول من السماء"، و"الاستنارة العظيمة"، و"النصر"، و"العجيبة العظيمة" هي بعض الأسماء المعبرة جدا للأمثلة الرئيسية لآثار تبتية غريبة كهذه، وأكثر من كونها مجرد تعبيرات عن العبادة الذليلة والتقوى البشرية، فإن الرموز والصيغ التي تحملها، أو تحملها الجدران الحجرية التي تربطها، توحي ببهبة الدارما ("القانون" أو "الطريق")، وهذا الطريق، الذي كشفته وحققته كائنات بارزة كبوذا، سيظل دائما مبدأ " فايراغيا" و"أودفيغا"، القرف والاضطراب الداخلي اللذين ينتزعان "النبلاء" من مجرد العيش، مثيرين فيهم الإحساس والحنين لواقع أصدق، وأحر، وأقوى، وبهذه الطريقة، فإن إقامة "مكود رتين" أو تشكيل "تسا تسا" له معنى إضافة حلقة جديدة للسلسلة غير المرئية لـ "القانون" و"اليقظة" تقريبا، وبما أنه في الطقس الصارم الذي يصاحب تشييد آثار كهذه يوجد حس ونية دقيقة لجذب حياة

وحضـور إلهي وربطهما بها سحريا، فإن فعل من يقدم قربانا أمام الـــــ "مكود رتين"، ويتلو صيغة، ويودع صورة طينية صغيرة في تلك البقعة (بنية تجسيد نية وإيمان طقسيا) سيعني المشـاركة في تلك الحياة غير المرئية، وفي الوقت ذاته إضـافة بذرة حيوية جديدة لها، ســـتؤتي ثمرة خفية في حياة من أودعها.

يلاحظ مؤلف الدراسـة التي أتحدث عنها بشـكل صحيح أنه في لوحات أكثر تقاليد الهند والتبت تميزا:

" كل ما يرتبط بالإيمان يعبر عنه بلغة ملونة من الخطوط والأشكال التي ترفع المؤمن أو الملقن لمستويات تجارب عليا ولذلك تصـبح مركبات فعالة لتحققات صـوفية، لم يتميز الفن الهندي قط بالدقة التقنية أو بالاستنساخ الأمين لأشياء غير مرئية، فأن تشـــيد، أو ترســـم، أو تنحت يعني أن تترجم لهيروغليفية الخط، أو الشـــكل، أو اللون، تلك التجارب، والحقائق، والحدوس الحاضرة في روح الجميع، وإن بدرجات متفاوتة".

ينعكس هذا المعيار حتى في الـــــ "مكود رتين"، التي تلهم وتؤثر فيها نوايا رمزية، وتناظرية، وحتى سحرية معينة على تشييد الأثر حتى في أدق تفا صيله، وفقا لشكل محدد، عند هذه النقطة من الضروري التأكيد على الفرق بين هذا النوع من الفن الرمزي ونوع الفن الديني الذي يظهر في المسيحية، فما يعد بالنسبة للمؤمن المسيحي آلهة في شكل أشخاص أو كائنات خارقة متميزة عنه، هو في التقاليد الميتافيزيقية للشـــرق (وكذلك في العديد من التقاليد الباطنية القديمة للغرب)، مجرد رموز لحالات وعي متعالية ولطاقات صـــوفية، يمكن تحقيق كليهما باطنيا على طول طريق "اليقظة"، وهكذا يســتبدل اللاهوت بعلم نفس متعال، هنا، يغيب ذلك الأنسنة وتجسيد الإلهي (الذي يصادف كثيرا في الفن الديني المســيحي، حتى يولد طبيعية من نوع خاص)، ويشـير التوصيف الغرائبي لصـور معينة، مزودة بأطراف ورؤوس عديدة، إلى أن ما يتم تمثيله لا يمت بصلة ولو بعيدة أو تناظرية للطبيعة، بل هو رمز وحسب.

علاوة على ذلك، يقصـــد بالأجزاء المفردة للآثار التبتية الصغيرة الهرمية الشكل تمثيل المراحل أو الدرجات التراتبية لرحلة نحو "اليقظة" والتحقق الداخلي، ففي الأســـفل، وكأساس، ستساعد الدرجة الأولى للـــ "مكود رتين"، وفقا للتقليد التبتي، عابر السبيل على تذكر أسس اليقظة الأربعة، أي، تعاليم وعي ناصع للجسد، والشعور، والعقل، والمواضيع العقلية، ومن هذه الدرجة، صـــعودا، نجد العنصـــر التالي للبناء، الذي يشـــهد على الجهود الكاملة الأربعة؛ ثم نجد العناصـــر التي ترمز لقوى التصـــميم والفضـــائل المســـتجلبة للاســـتنارة؛ ثم العناصـــر التي ترمز للطريق الثماني، الذي يتكون من الرؤية القويمة، والعزم، والكلام، والســـلوك، والمعيشـة، والجهد، واليقظة، والتركيز، وفي مستوياته العليا، يلمح الصـرح لأشـكال الوعي المتعالية، وللقدرة على امتلاك رؤى تتجاوز حدود الميلاد والموت، ولقوى الشجاعة والنصر المواجهـة لقوى الطبيعـة وإيروس المظلمـة، وأخيرا، في قمـة المبنى، تعبر حلية ثلاثية غالبا عن الثالوث الأسمى للشـمس،

والقمر، والنار، فالشمس هي الطاقة الذكورية الإلهية؛ والقمر، القوة الأداتية المحققة، هو المديناميس الأنثوي؛ والنار المتأججة، التي هي توليف الاثنين الآخرين (وغالبا ما تصور عبر رمزية اقتران الإله الشمسي بعروسه أو "قوته" - وللمصطلح السنسكريتي شاكتي هذا المعنى المزدوج)، هي مبدأ كل نشاط ويقظة.

في كامل التراتبية المذكورة آنفا تعد هذه العناصر، وفقا للعقائد الهندية-التبتية، حقيقية كحقائق فوق وعي، وكعناصر موضوعية للعالم، وأخيرا، كقوى كامنة ترقد في أعمق دهاليز الكائن البشري، وفي الواقع، تؤسس الرمزية في بعض الـ "مكود رتين" تناظرا بين العناصر المختلفة للأثر النذري والمراكز الصوفية المختلفة أو "عجلات الحياة" (شاكرا)، التي توطنها معرفة الزهاد في مناطق محددة من الجسد، وهكذا، يقال إن الشمس والقمر يناظران طاقتين غامضتين تعملان في التحقق الداخلي: وتوليفهما هو تلك النار التي تستثير أو تسبب تفتح مراكز صوفية كهذه وتقود الزاهد لذلك التحقق

الأسمى الموصوف في النصوص البوذية عبر رمزية الجبال العالية، أو الأسد المنتصر، أو الدورجي (الجسد الصاعقة- الماسي الصوفي)، ويقول نص بوذي عن هذه الرموز: "الآن لم يعد هناك هنا أو هناك، لا مجيء أو ذهاب، لا حياة أو موت، بل فقط هدوء واستنارة كما في محيط لا نهائي".

أتذكر المشاركة في تسلق جبل في الصيف الماضي، في منطقة هي من بين تلك التي تحفظ بشكل أفضل صدى العصور الوسطى الكاثوليكية الأكثر تقليدية: التيرول النمساوي، بدءا من حافة غابات داكنة وشبه نيبلونية، وذهابا طوال الطريق للقمة، عبر الأحراش والجلاميد الضخمة، متبعين مسارا غير مؤكد يلتف وسط ركام جليدي حتى يصل للأنهار الجليدية الدائمة، كانت هناك مقامات صغيرة وخشنة مصنوعة في تلك المرتفعات، للأشياء أكثر منها للبشر، اتبعت هذه المقامات نسقا مقدسا (محطات درب الصليب المختلفة، من الآلام للقيامة) لكنها وسمت في الوقت ذاته مراحل صعود منهك، من ضباب الوديان لضياء القمم المشرق وغير

الجســـدي، وفي الأعلى، عند قمة غروس-غلوكنر، برز من الأنهار الجليدية صليب عظيم مصنوع من قضبان الحديد، ومقيد بالسلاسل على الصخور، في منتصف أفق دائري وواســع؛ ويمكننا أن نقرأ عليه بعض الأبيات، بنبرة بين المقدس والبطولي، كان هذا واقعا ماديا حمل في الوقت ذاته، في لحظات التوافق بين الذات الداخلية والخارجية، عنصرا ميتافيزيقيا ما.

ربما تجارب كهذه تقدمنا بطريقة مباشرة لمعنى (في منطقة ذات ارتفاعات مماثلة، ومع ذلك مشبعة بالأسطورة والرمز، كالتبت) سلسلة الـــــ "مكود رتين"، والجدران الحجرية الصغيرة، والأحجار الطقسية الغريبة التي تغطي المناطق المقفرة وتذكر عابر السبيل بالزهاد الذين يعيشون في تلك الأصقاع الصامتة وفي تلك العزلة.

الملحق ج: التدين في تيرول

إذا كانت جبال الدولوميت تبدو مرتبة بوعي، فالتيرول عالم عنصري، والفرق بينهما كالفرق بين البنية المعمارية الهوائية لكاتدرائية القديس بطرس في روما، والعظمة القوطية المهتزة نحو السماء من المسلات السوداء لكاتدرائية القديس ستيفن في فيينا.

رغم كل هذا، فالدولوميت تشبه عالم البحر المتوسط، عالم أضواء، وألوان، وهواء، وهنا، بالكاد يدرك البعد الثالث للأشياء، كما في مشهد خيالي، وخلال الليل، تتحول مملكتها من التجليات الواضحة الخارجة من غطاء نباتي لا تشوبه شائبة، إلى صور ظلية غامضة، ومهددة، ومعقدة، ويدعو هذا التغيير للحاجة للتحول من التأمل للفعل، أي، للاتصال المباشر بالصخر: تحدي مقاومته، وارتفاعه، وإتاحيته المنيعة.

وعلى العكس، عالم التيرول عالم رمزي، مملكته ليست الصخور بل الجليد، وهي ليست حتى كالعالم الأبيض النقي للأنهار الجليدية الغربية العظيمة، وكأن الطبيعة نفسها

استعدت لتتجلى بضوء جليدي خالص، مع نوع من نسك الصمت والوحشة، العنصرية هي سمتها الرئيسية، والمسافة عن الإنسان أعظم بكثير، هذه هي رمزية التيرول، ونظائرها هي شظايا تدين تقليدي، ومغلق، وعميق، وكأن السكان ما زالوا يعيشون في العصور الوسطى، موجودة بين السكان المتناثرين، لدي ذكريات مشوشة عن عبور طويل لغروس-فينيديغر: من هوتة ديفريغر إلى هوتة بادفر، ثم، بعد اتباع مسار عال، نحو ما يسمى إينيري غيشوس، طوال الطريق إلى هوتة تاورن.

لن أتحدث هنا عن جودة الجليد الموجودة في المسار الأعلى والتي لا تضاهى في أي مكان آخر في العالم؛ ولن أتحدث مطولا عن المسار على الركام المسنن العظيم المتوج بالسحب؛ ولا عن المسارات المتعرجة وسط غطاء نباتي فوضوي وسام تقريبا، أطول من قامة المرء؛ ولا عن المسارات المتعرجة الحادة جدا، والرطبة، والغادرة المعلقة تقريبا فوق الهاوية، في الأسفل، الوادي العالي والتيار، نمضي قدما بالحالة

الذهنية التي عادة ما تنتاب المتسلقين خلال ساعات النهار الأخيرة، وفجأة، يفسح الوادي المجال لخانق ويتحول، في الخلفية لا توجد سوى القمة، وحولنا صخور صفراء وسوداء مختلطة تبدو كالخشب أكثر من الحجر، مفتقرة، كما يبدو، للجودة الباردة والثقيلة للحجر، هناك صخور ثم منازل؛ نرى بداية قرية، لكن لا أثر للحياة، المساكن أكواخ خشبية صغيرة بلون واحد، الأبواب مفتوحة، والنوافذ قد سقطت؛ لا يوجد بشر أو حيوانات في الأفق، الصوت الوحيد هو صوت الشلالات غير المرئية القادمة من الأنهار الجليدية.

على جانب المسار صليب عظيم عليه تاريخ ولافتة مهترئة، لا أتذكر الكلمات الألمانية بالضبط لكن معناها كان تقريبا هكذا: "عابر السبيل، توقف للحظة؛ انظر للأنهار الجليدية وأيضا لعلامة من مات لفدائنا ومن علمنا أن الموت بوابة الحياة".

وفقا لأسطورة غامضة، نقل الكأس المقدس، حجر النور الصوفي الذي رمز للتقليد الروحي الحي للعالم الغربي في العصور الوسطى، من إسبانيا (بدءا بمونتسالفات في سالفاتيرا) إلى بافاريا وأخيرا إلى التيرول، في إنسبروك، في الكنيسة الفضية، وسط تماثيل الأسلاف الأسطوريين لـ "آخر فارس أوروبي"، ماكسيميليان الأول، يوجد أيضا تمثال للملك آرثر من كاميلوت ولفرسان الطاولة المستديرة، ويبدو أن شيئا من هذا الإرث الغامض محفوظ في التيرول، وإن كان في عزلة، أصول الأعراق الشمالية، السائدة هناك، غير معروفة، ولا بد أن المسيحية قد أحيت هذا العرق وزودته بعقيدة أعمق، مانحة إياه فرصة الامتداد لفترة تاريخية لاحقة، رغم أنه تغير في العملية.

يجب عزو وجود بعض الرموز البدائية في شكل ممسيح -لا مغرب وحسب- لهذا العرق، فمثلا، في وديان التيرول وحتى في مدن كإنسبروك ولينز، غالبا ما نجد تنويعا غريبا للمصلوب يقام على غنائم الصيد ويعرض حول المسيح هالة

شمسية من النوع الشعاعي المشاهد في الديانات البدائية، وعلى قمة المنازل الريفية، التي تعكس دائما الطراز المميز ذاته، توجد توليفات مثيرة للاهتمام للمصلوب مصحوبة بأشكال حيوانية تركيبية، تختلف من واد لآخر، ولا تزال تحفظ درجة كبيرة من التشابه مع الرموز الطوطمية القديمة.

في أي حال، هناك علامات متكررة لمدين يرتفع فوق المستوى العاطفي أو التقليدي المعتاد ويقود مباشرة لمستوى التوليف الروحي، في مقال سابق لي، بعنوان "الفن والرمز في مقر الثلوج"، قدمت مثالا على هذا، في أوتزتال يوجد مسار يؤدي للأنهار الجليدية موسوم بصور درب الصليب، المحطات المختلفة مفصولة بفواصل طويلة، عند آخر محطة للصليب، تنتهي الصخور ويبدأ النهر الجليدي، يوجد هذا الدرب في منطقة خارج أكثر مسارات الألب ارتيادا، وكأنه وضع هناك لطقس منعزل وصامت، ومع ذلك فهو مليء بمعنى حي، على غروس-غلوكنر، في خانق يتحول فيه التيار الذي يبدأ عند قمة هذا الجبل لشلال هادر، توجد

كنيسة صغيرة بها نذور (ex voto) مختلفة، أحدها ممثل بميداليات بسالة عسكرية مع هذه اللافتة تحتها: "أدين لله بالشجاعة التي منحتني هذا الشرف".

أتذكر احتفالا أقيم في كنيسة براغراتين، رغم أنني لم أعد أتذكر المناسبة، بدت الكنيسة كساحة عرض عسكري: الرجال على اليمين، والنساء على اليسار، كلهم مصطفون بانتظام، يرتدون أزياءهم التقليدية، وفي المنتصف وقف وفد عسكري يحمل الأعلام والشارات، غنوا جميعا لحنا بمصاحبة أرغن ومعزز بأبواق؛ ورغم بعض الافتقار للتناغم، خلق تأثيرا فريدا لم يخل من عظمة معينة، في التيرول لا توجد مجموعة منازل، مهما كانت نائية وصغيرة، لا تملك كنيستها الخاصة، ولا يوجد ممر ألبي أو منظر بانورامي لا يملك صليبه الخاص، الذي يعاد وضعه دائما كلما أسقطته الريح أو العاصفة أو جرفته، هذه دعوة صامتة تقريبا لتحويل وتكامل ما قد ينبع، كعاطفة جمالية محضة، من تأمل الطبيعة في الشكل الأسمى لمعنى روحي ورمز منير.

هذه شـــظايا عالم مفقود ربما لن يصـــمد طويلا أمام مرور الزمن، جنبا إلى جنب مع منطقة ســـالزبورغ، أصـــبحت التيرول منطقة منتجعات عصرية، جمهور دولي، مؤلف من سياح و ضيوف دنيويين، يزحم هذه المناطق في الشتاء وفي الصـــيف، واصـــلا حتى لأكثر الوديان عزلة، حيث تبنى فنادق جديدة بينما تخضـع الموجودة للتجديد، تتخذ البلدات نفسها مظهر مواقع عطلات أو منتجعات تزلج، وقد أصبح ينظر للتقاليد المحلية والأزياء الشعبية مؤخرا كأشياء للعرض، مما يرقى لاقتلاعها، وهكذا، يصـــبح الجمهور الغريب "متايرلا" (Tyrolized)؛ ويســـتمتع المزيد والمزيد من الناس بارتداء الليذرهوزن والدرندل، كل هذا يمثل بداية النهاية، جيل آخر وربما ســـيغمر المســـتنقع البرجوازي للعالم الحديث كليا ويمتص حتى هذه الآثار الأخيرة لحياة يمكن تســـميتها حقا أصيلة وسوية.

الملحق د: مملكة شيطان القمم

سان مارتينو دي كاستروزا، تمثل بلدة فيلتر نهاية مجال القطارات التي تسحب ببطء أعلى هذه النتوءات الأولى للدولوميت، هنا تبدأ مملكة المسارات السريعة والمقفرة التي تتلوى بين الخوانق والغابات.

هادئة ومجتمعة في جوقة مهيبة، تترك مجموعة فيلتر الجبلية خلفنا في ضوء المساء، لكن بعيد تجاوز القرى الصغيرة فييرا دي بريميرو وأغوردو بقليل، يمكن إدراك الطبيعة المهيبة للمشهد الألبي بوضوح، تقل سرعة السيارات ويصبح التغيير المستمر للتروس ضروريا، لم يعد صوت النهر المتدحرج همسا رقيقا بل هديرا، يصبح الغطاء النباتي، الذي يسود فيه تنوب الشوح، أكثر كثافة، مشكلا كتلا من الخضرة بلون معدني وعميق متزايد مع بدء خفوت ضوء الشمس، وبين الضباب والأبخرة المتصاعدة من الوادي والسماء العالية والشاحبة، تبرز القمم العالية لكتلة بالي واحدة تلو الأخرى، في لعبة المنظور المتغيرة التي تخلقها السيارة المسرعة، ها هي ذي،

ساس ماور، كريستا دي مادونا، قمة بال، روزيتا، تشيمون دي بالا، إنها أشكال مقفرة، ومأساوية وعنصرية، ذات نقاء تيتاني، يبدو الأمر وكأن الأرض نفســها عبرت عن طبيعتها السريالية وذات السيادة، بلا مساومات أو تلوث بأي شيء بشري.

نستمر، وتصبح القمم، الآن وقد بدأت الشمس تغرب في الوديان الغربية، مغطاة بالظل، وتتخذ مظهرا مجيدا وقديما، إنها ذهبية وأرجوانية، في ســماء تبدو أعلى وأبعد، ترتفع الأبخرة التي تطلقها الوديان والغابات في المســاء ببطء إليها، وتختفي عن نظرنا بينما يغوص الطريق في الغابة، ولا يمكننا رؤيتها ثانية إلا حين تدخل ســياراتنا، خارجة من الغابات بعد عدة منعطفات، سان مارتينو دي كاستروزا.

من هناك المنظر يحبس الأنفاس: وكأن القمم تطفو بين السماء والأبخرة، ضياء منزوع الجسد، تبدو كالذكريات، أو كأصداء غير مادية، ويصبح الهواء باردا، وجافا، ولاذعا، وتتوقف السيارات، نرى لافتة الفندق الكبير للدولوميت،

يبدو كسفينة عابرة للمحيطات ضخمة راسية في الرصيف، الأضواء الصادرة منه مصطفة، ساطعة، ومنتظمة، إنه تحول مفاجئ: لم يعد الجبل موجودا، إنها كقطعة من حاضرة (Metropolis) عند ١٥٠٠ متر، البيئة أنيقة، نرتدي بدلات العشاء للعشاء، في الداخل الجو دافئ، وإيقاع الجاز الجامح يملأ الغرفة.

من سان مارتينو دي كاستروزا يستمر الطريق للدولوميت، مؤديا لممرات رولي وكولبيكون، موقع ذكرى مجيدة للحرب العالمية الأولى للشعب الإيطالي، في سان مارتينو، وهي بلدة تتألف فقط من فنادق عظيمة، تتوقف المجموعات السياحية قبل المغادرة في رحلات لقمم الجبال الشاحبة، وحينها، تقصر كل وسائل التقنية الحديثة، التي تنتصر على المسافات والتعب، ويترك الإنسان أخيرا لنفسه، لقوته، لجرأته، محاطا بالأشياء وبقوى هذه الطبيعة الجامحة وغير الملوثة.

تقود المسارات الألبية، بدءا من المنطقة المشجرة بالتنوب، إلى المنطقة المأهولة بأشجار العرعر، وأخيرا لصخور

الدولوميت العارية، المتشـــظية والمليئة بالخوانق والركام ذي اللون الجيري الأبيض الســـاطع، عند ٢٤٠٠ متر تتقارب المسـارات على هضـبة بالي، التي تمثل النقطة التي لا يحتمل بعدها مصـادفة شـباب جريئين يرتدون سـترات ملونة جميلة بأزرار ذهبية على طراز بيتويف أو سيدات بجوارب مطوية على طريقة التنس، في منتصـف الهضبة (يوجد كوخ جبلي صـغير، حيث يمكن قضـاء الليلة حول موقد لطيف، محاطا بصـمت هائل)؛ هذه الهضبة مجرد نقطة انطلاق للتسلقات الحقيقية.

في أي حال، منظر هذه الهضـــبة في حد ذاته تجربة لا تضاهى، وفريدة، ومثيرة للإعجاب؛ فهي تشبه صحراء قمرية، ثابتة، وموحدة، لا يوجد فيها لأميال ســـوى صـخور خام ملسـاء من اللون ذاته، بين الأبيض الخفافي والفضـي المعتم، بلا انعكاسات، قاحلة، هامدة، بلا صوت، بلا حركة، تظهر بقع من الثلج هنا وهناك، ســـاطعة أحيانا، وثمينة المظهر

أحيانا، بشفافية ولمعان الكوارتز، وفي الخلفية يوجد نهر فريدوستا الجليدي.

من شأن هذا المنظر أن يطبع في الروح حسا لا يوصف ولا يمحى من الجزع ومن العظمة، وخلال الليل، يا له من صمت مطبق، ويا لها من قبة سماوية ساطعة، قوية جدا، ومبهرة، وسامية!

الهضبة هي المخيم القاعدي لأولئك الممسوسين بشيطان القمم؛ ليس كل من يغادر يعود، بالأمس وجدوا اثنين من "مدينة الخيام" لمجموعة من ميلانو؛ وجدوا محطمين على منحدرات جبل تشيموني، ومنذ أيام كان دور رجل ألماني، عند ساس ماور.

نقلت جثثهم لسان مارتينو بواسطة أدلاء الجبال، وزينت ببضع زهرات ألبية ودفنت غير بعيد عن مقبرة الحرب التي تحوي رفات أبطال كولبريكون، مسرح العمليات العسكرية الشرسة خلال الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك، غادر آخرون ويستمرون في المغادرة على المسارات ذاتها، نحو

الجدران ذاتها على الأنهار الجليدية ذاتها، بالازدراء ذاته للخطر الموجود في كل ممر وفي كل حركة، وبالثقة بالنفس ذاتها التي تجعلهم يرفضـــون مســاعدة الأدلاء والمجموعات المربوطة.

ثمة بعض الجنون في كل هذا، لكنه أيضا شعلة تتقد أعلى من كل القيم الصغيرة التي يعتز بها الناس العاديون، في هذا يوجد شيء مقارنة به تبدو الحياة العالمية الدنيوية التي تلوث النقاء الدولوميتي بمباريات التنس، والشاي، والجاز، شاحبة وكالجيفة.

يميل كل شـــيء في المجتمع الحديث لتثبيط الحس البطولي للحياة، يتحرك كل شـــيء نحو الميكنة، نحو الحياة المجتمعية المنظمة والحذرة لكائنات في حاجة مســتمرة لشـــيء ما، وليســت مكتفية ذاتيا، يميل كل شـيء اليوم للاختزال في الطبقتين الدنيين من الطبقات الأربع (الأبطال، الملقنون في الحكمة، التجار، والعمال) التي قام عليها التنظيم العقلاني والمتكامل للمجتمعات الشرقية القديمة.

الحرب نفسها، وقد ميكنت، لم تعد تعرف محاربين -بالمعنى القديم، والكلا سيكي، والقرو سطي للكلمة- بل جنودا فقط، وإذ خنقت، ستبحث الإرادة البطولية عن مسارات أخرى، منافذ أخرى وراء شبكة المصالح العملية، والأهواء، والرغبات الشديدة التي تزداد ضيقا كل يوم، ربما الحماس الشعبي للرياضة الذي يبديه معاصرونا هو مظهر منحرف لهذا، ومع ذلك، فالصراع مع المرتفعات وهاويات الجبال هو الشكل الأنقى والأجمل، محررا من كل شيء مميكن ومن كل شيء يرقق العلاقة المباشرة والمطلقة بين الذات والظواهر.

الطبيعة العميقة للروح التي تدرك نفسها كلانهائية وحرة، دائما وراء ذاتها، وراء كل الأشكال والعظمة الموجودة في الداخل أو الخارج، تستيقظ وتسطع في "جنون" أولئك الذين، دون سبب أو غرض، يتسلقون القمم والصدوع بإرادة لا تقهر تؤكد نفسها فوق التعب، والخوف، وصوت الغريزة الحيوانية للحذر وحفظ الذات.

الشعور بأنك متروك لنفسك، دون أي مساعدة أو مخرج، متسربلا بقوتك أو ضعفك فحسب، بلا أحد لتطلب منه العون؛ التسلق من صخرة لصخرة، ومن مقبض لمقبض، بلا هوادة، لساعات؛ مع حس الارتفاع والخطر المحدق، وحس العزلة الشمسية؛ حس التحرر الذي لا يوصف والتنفس الكوني في نهاية التسلق، حين ينتهي الصراع ويقهر التوجس أخيرا؛ منظر الآفاق اللامتناهية، لأميال، وكل شيء آخر تحت قدمي المرء -في كل هذا يوجد حقا تطهير، ويقظة وولادة لشيء متعال وإلهي.

أولئك الذين يعودون ليلا للوادي بالأسفل، والذين تعيد سان مارتينو امتصاصهم في الحدائق المضاءة والدافئة للفنادق الكبرى حيث يتجمع رجال وسيمون يرتدون سترات ملونة وسيدات مكرسات لمباريات التنس وحفلات الشاي -هؤلاء الأفراد، دون أن يعلموا، يحملون في عيونهم وفي وجوههم التي لوحتها الشمس شيئا يعزلهم كأناس من عرق آخر.

من جانبي، بعد التعرف خلال الحرب العالمية الأولى على دوار المرتفعات (الذي أحبه وأعتبره أفضل تجربة في حياتي) أفهم وأبرر هذا "الجنون"، الذي بموجبه، من وقت لآخر، تؤخذ أجساد محطمة مغطاة ببضع زهرات ألبية عبر خوانق ذات لون جيري أبيض، طوال الطريق لسان مارتينو، وإذ حاولت التجربة ذاتها وخاطرت بالخطر ذاته، مدفوعا بحنين وشغف أقوى مني، أشعر أن هذه الفترات القصيرة من الوقت المقضية خلال الصيف في الدولوميت تمنحني القوة للوقوف، دون مساومة على مثلي، أمام صراع آخر وجهد مختلف، صراع شيطان الحاضرة.

الملحق هـ: العلو

بينما رمزت الأرض، من جهة، إلى الحالات الدنيا للوجود، والتي ربطت في الرمزية الغربية بالحالة البشرية عموما (انظر الاشتقاق الكلاسيكي لـ "هومو" من "هوموس")، فمن جهة أخرى، صورة العلو، أو القمة الألبية، التي هي وصل للأرض بالسماء، هي تعبير طبيعي آخر عن حالات الوجود التي ميزت في الأزمنة القديمة الطبيعة الملكية، وهكذا، في التقليد الإيراني، كان جبل - أوشي-دارينا العظيم، الذي خلقه إله النور- يعتقد أنه مقر الـ "هفارينو"، القوة الملكية الصوفية، علاوة على ذلك، وفقا لهذا التقليد وللتقليد الفيدي أيضا، يعتقد أن الـ "هاوما" أو "سوما" الرمزي، الذي يتصور كمادة محولة ومؤلهة، ينمو على الجبال.

علاوة على ذلك، "سموك" أو "سموك الموقر" ألقاب منحت للملوك والأمراء حتى العصر الحديث؛ ويعود معناها الأصلي لروابط رمزية قديمة، بموجبها كان "الجبل" أو "القطب"

تعبيرات مختلفة للفكرة أو الوظيفة ذاتها، المنطقة المرتفعة فوق الأرض هي "جبل الصحة" أو "الخلاص" (مونتسالفا في ملحمة الكأس المقدسة)؛ وهي أيضا جبل رودرا، المتصور كعاهل كوني، التعبير السنسكريتي "باراديشا"، المرتبط بوضوح بالكلدانية "بارديس" (ومنها، الاشتقاق المسيحي لمصطلح فردوس)، له بدقة وحرفية معنى "علو" و"أرض عالية"، في هذا السياق أعتقد أنه من المشروع الإشارة لجبل أوليمبوس أو للجبل الغربي الذي يؤدي للمنطقة الأوليمبية وهو "طريق زيوس"؛ ولجميع الجبال الأخرى في التقاليد المختلفة التي هي مساكن الآلهة، الذين يجسدون حالات الوجود الأورانية؛ ولجبل شينفات، الذي يقع عليه "الجسر الذي يصل السماء بالأرض"؛ وللجبال الشمسية والقطبية، كجبل ميرو الرمزي، الذي يعمل كمركز للعالم، هذه كلها جبال ترتبط بأساطير ورموز الملكية المقدسة والحكم الأسمى.

بصرف النظر عن التناظر المذكور آنفا، فإن الأسس النفسية المرئية لهذه الرمزية التقليدية هي العظمة البدائية، والجامحة، وغير البشرية والطابع المنيع والخطير للجبال العالية.

بشـــكل أكثر تحديدا، في التقليد النوردي-الآري، غالبا ما ترتبط فكرة الجبل بـ "فالهال"، مقر الأبطال والملوك المؤلهين، وكذلك بــ "أسغارد"، مقر الآلهة (آسين)، الواقع في مركز أو قطب الأرض (في ميتغارد)، والذي يشار إليه بــ "اللامع" (غليتنير)، و"الأرض المقدســـة" (هيلاكت لاند) ولكن أيضا بـــ "الجبل السماوي" (هيمينبيورغ): هذا جبل إلهي، عال جدا، تسطع على قمته، وراء السحب، نقاء أبدي، ومنه يراقــب أودين العــالم، عزا الملوك النورديون-الجرمــانيون الإلهيون أصلهم ومسكنهم البدائي لهذا الجبل.

كفكرة تكميلية، قد نفحص تيمة الجبل كمكان يختفي فيه أولئك الذين حققوا الاســتنارة الروحية، هكذا، مثلا، كان جبل الرائي، الذي سكنه، وفقا للبوذية المبكرة، سكان تحت أرضــيين، يقال إنهم "فوق-بشــر، ومنتصــرون، وكائنات لا

تمس، ومستيقظون ذاتيا، وأحرار من كل القيود"، يرتبط هذا المعنى أيضا بالفكرة الملكية والإمبراطورية، يجب أن نتذكر الأساطير القروسطية الشهيرة، التي وفقا لها اختفى شارلمان، وفريدريك الأول، وفريدريك الثاني داخل الجبل الذي سيعودون منه يوما ما، لكن هذا المسكن الجبلي تحت الأرضي مجرد صورة للمقر الغامض للحاكم الكوني، الذي هو تعبير عن فكرة المركز الأسمى.

في المعتقدات الهيلينية الأقدم، يسرق الأبطال من الموت ويؤخذون لجبل على جزيرة، والتي، حتى بالنظر لاسدها (لوكي)، تناظر "الجزيرة البيضاء للشمال"، التي يعتبرها التقليد الهندوسي المسكن الرمزي للمباركين وأرض "الأحياء": أرض يحكمها نارايانا، الذي هو "نار وبهاء"، وتناظر أيضا جزيرة أسطورية أخرى، حيث، وفقا لبعض التقاليد الصينية، يوجد جبل عظيم، يسكنه رجال متعالون (تشينغ جين)، بالسفر إليها، تعلم أمراء مثل يو، الذين اعتبروا أنفسهم حكاما جيدين، فن الحكم، من المهم التذكر أن

أراضـي عجيبة كهذه، "لا يمكن الوصـول إليها برا أو بحرا، بل فقط عبر تحليق الروح"، ترمز صــورة الجزيرة للاســتقرار، بكونها منفصلة عن القارات ومحاطة بالمياه.

في تفســير كتابات الإمبراطور فو-هي، غالبا ما تكون مفاهيم "الرجال المتعالين" الذين يســكنون "الجزيرة" مرادفة لمفهوم "الملك"، وهكذا، تؤكد رحلة بين أســاطير العالم التقليدي مجددا عقيدة الملكية الإلهية عبر هذه التقاربات والتكافؤات بين رموز الوظيفة الملكية وتلك التي، بطرق شــتى، تلمح لحالات الوجود المتعالية وللكرامة التلقينية بامتياز.

هوامش

طبع كتاب "تأملات في القمم" بتنسيق كبير مع رسوم توضيحية عديدة، وقد حرر بيير باسكال الترجمة الفرنسية لمقالين من هذه المجموعة، هما "تأملات في القمم" و"الجدار الشمالي لليسكام الشرقي"، وفيما يتعلق بالمقال المنشور عام ١٩٢٩ بعنوان "الصعود الأول" بتوقيع "رود"، فهو دومينيكو روداتيس، المعاصر لإيفولا، والذي لا يزال حيا ونشطا (وقت نشر الكتاب)، وهو عضو في الجمعية الأكاديمية الإيطالية للجبال، التي تضم نخبة متسلقي الجبال الوطنيين، وقد نشر حديثا مقالا حول قضايا ذات صلة بعنوان "المعنى الباطني للجبل كان أساس الحضارات العظيمة"، أما الإشارة إلى متسلقين معينين في النص، فهذا هو حال رينهولد ميسنر الشهير عالميا، والذي يعتبر عالميا أعظم متسلق حي، يمكننا القول إنه في جميع مآثره الاستثنائية وفي طريقته في "عيش الجبل"، يجسد لدرجة كبيرة المتسلق المثالي الذي وصفه إيفولا، وإلى جانبه الأدلاء من فال داوستا، أرتورو

وأوريستي سكوينوبال، اللذان حملا في عام ١٩٧٤ رماد إيفولا إلى جبل روزا.

أوصي بشدة برواية رينيه دومال "جبل الأنالوغ: رواية لمغامرات غير إقليدية أصيلة رمزيا في تسلق الجبال"، وهو نص أصيل للتسلق الميتافيزيقي، وفي هذا العمل، الذي لم يكمله المؤلف بسبب وفاته المبكرة، ندرك تقنية للنسك العقلي مستوحاة من التمارين الروحية لغوردجييف ومدرسته، وفي عام ١٩٧٣، وكعربون تقدير للعمل الذي شرعت فيه، أعطاني إيفولا مطبوعات ملونة لروريتش (الذي تحفظ لوحاته الأصلية في متحف روريتش في مدينة نيويورك) لكي يستخدم بعضها لتوضيح "تأملات في القمم"، وأنا بدوري أعطيت إحدى هذه المطبوعات ليوجينيو ديفيد في أغسطس ١٩٧٤، وديفيد، الذي تسلق الجدار الشمالي لليسكام الشرقي مع إيفولا، كان له دور فعال في تنفيذ الجنازة الألبية لصديقه القديم، وكما رأينا في سرده للتجربة مع يوجينيو ديفيد في الفصل الثامن، "الجدار الشمالي

لليسكام الشرقي"، فإن ديفيد، الذي يصغر إيفولا بعام، كان قريبا بعيدا للدليلين، الأخوين سـكوينوبال، المذكورين آنفا، وتذكرنا القصص التقليدية للعديد من الشعوب الهندوأوروبية بالتغيرات المناخية العظيمة التي تسـببت في فقدانهم لموطنهم في المناطق المحيطة بالقطب الشمالي، وأخيرا، لويس ترينكر، المولود في أورتيسـي عام ١٨٩٢، كان مخرجا سـينمائيا، ومصورا، وممثلا في الأفلام الألمانية، رغم احتفاظه بجنسيته النمسـاوية، وقد حقق شـهرته الكبرى في ثلاثينيات القرن العشرين بتمثيل أدوار تسلق الجبال.

نبذة عن المؤلف

يوليوس إيفولا (١٨٩٨-١٩٧٤)، فيلسوف وناقد مثير للجدل للحضارة الغربية الحديثة، كتب على نطاق واسع في الديانات الشرقية، والكيمياء القديمة، والجنسانية، والسياسة، والميثولوجيا، وقد نشرت له "التقاليد الداخلية" كتب "إيروس وألغاز الحب: ميتافيزيقا الجنس"، و"يوغا القوة"، و"التقليد الهرمسي"، و"ثورة ضد العالم الحديث"، و"لغز الكأس المقدسة"، و(اعتلاء الببر).